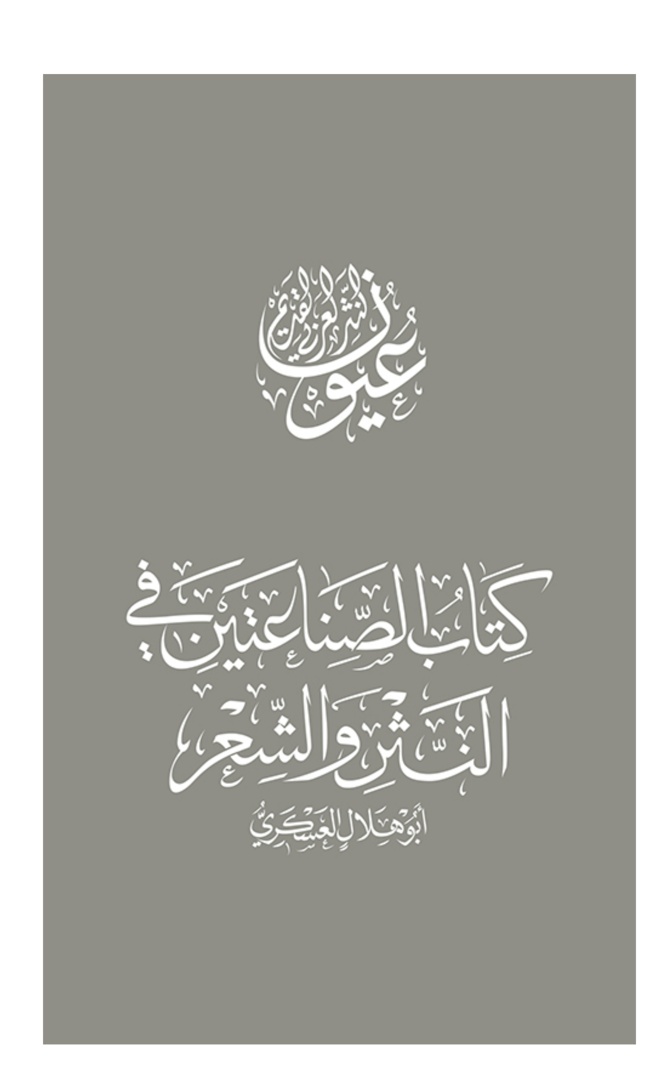
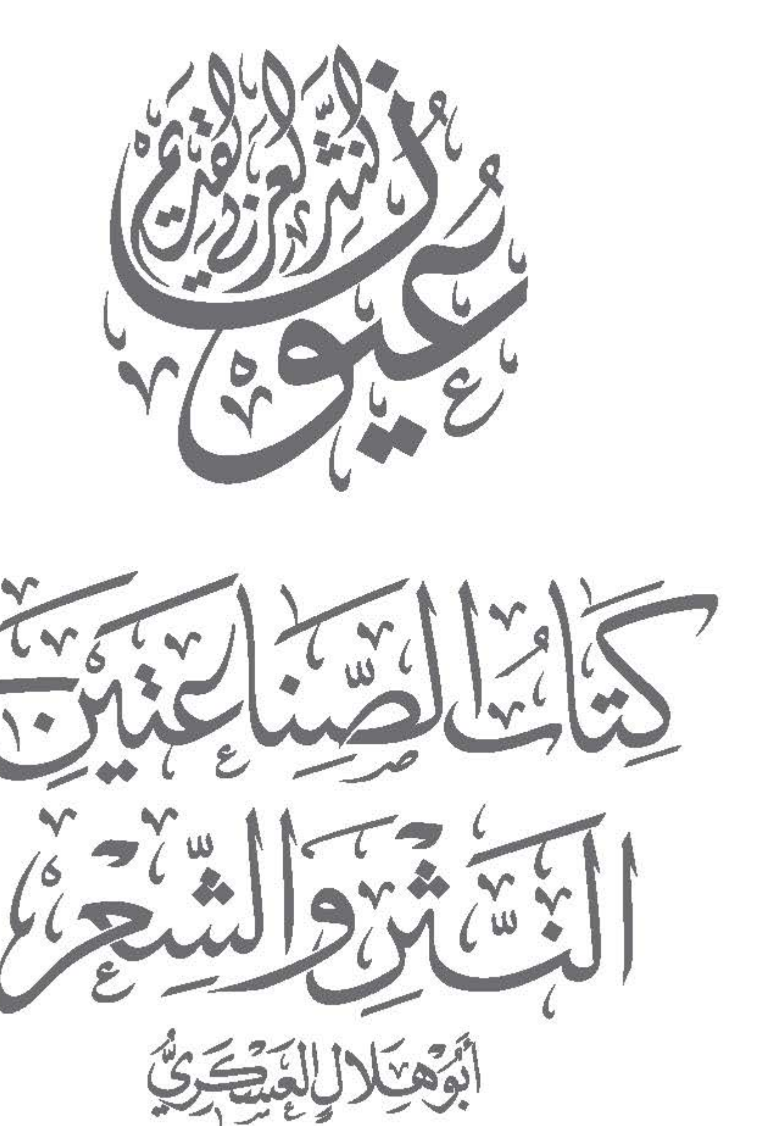


كتاب الصناعتين في النثر والشعر

أبو هلال العسكري


عيون
كتاب الصناعتين في النثر والشعر
أبو هلال العسكري


كتاب الصناعتين في
النثر والشعر
أبو هلال العسكري

PJ6161 .A8 2015

عسكري، الحسن بن عبد الله، 933-906.
كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر/ تأليف: أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري؛ إعداد: خليل الشيخ.-
ط. 1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2015.
ص.؛ سم. (سلسلة عيون النثر العربي القديم)
تدمك:
1. البلاغة العربية.
أ. شيخ، خليل. ب. العنوان.

إعداد:
د. خليل الشيخ

خطوط:
الفنان التشكيلي الخطاط محمد مندي





الطبعة الأولى 1435هـ 2014م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380
publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

مقدِّمة

عنوان هذا الكتاب هو (كتاب الصناعتين: الكتابة والشِّعر) لأبِي هلال العسكري (395هـ)، وإن كان ياقوت الحموي قد سمّاه "كتاب صناعتي النَّظْم والنثر". وقد ذكَر ياقوت وغيره أسماء كتب أخرى لأبي هلال العسكري ترتبط كلّها بالأدب واللغة البلاغة.

تميَّز أبو هلال العسكري باطّلاعه الواسع على كتابات مَن سبقه من النقاد والبلاغيين، وسعيه لفَهْم ما كتبوه وتبويبه وتنظيمه؛ كي يفيد منه طلبة النقد والبلاغة في القرن الرابع الهجري.

ذكر أبو هلال العسكري في مقدِّمة كتابه: "أنَّ أحقّ العلوم بالتعلُّم، وأَوْلَاهَا بالتحفّظ - بَعْدَ المعرفة بالله جلّ ثناؤه - عِلمُ البلاغة، ومعرفةُ الفَصَاحة، الذي به يُعْرفَ إعجازُ كتابِ الله تعالى، الناطقِ بالحقّ، الهادي إلى سبيلِ الرُّشْد، المدلولِ به على صِدْقِ الرسالة وصحَّة النبوّة، التي رفعَتْ أعلامَ الحقّ، وأقامَتْ مَنَارَ الدِّينَ، وأزالت شُبَه الكُفْر ببراهينها، وهتكت حُجُب الشكّ بيقينها".

وهو قول يشير إلى أنّ العسكري كان ينتمي إلى فكرة الإعجاز التي تربط بين البلاغة والإعجاز القرآني. وللبلاغة في نظر أبي هلال فوائد أخرى تتّصل بالقُدرة على الكتابة الإبداعية والأخرى النقديَّة. لكنَّ هدف أبي هلال العسكري كان يتمثّل في وضع أسس معياريَّة يستند عليها في الحُكم على العمل الأدبي.

وكتاب الصناعتين - كما يقول إحسان عباس - كتاب حسن التبويب، حافل بالأمثلة، سهل المأخذ للدارس، لكنّه صدًى للكثير من الآراء النقدية والبلاغيّة، يأخذها أبو هلال من مظانّها، ثمَّ يقوم بتنظيمها وعرضها على نحو تعليمي.

لكنّ كتاب الصناعتين يمتاز، على الرغم من ذلك، بالتماسك والترابط الداخلي، فأبوابه العشرة كلها تدور حول الكلام ومستوياته وتمييزه والقُدرة على إنشائه، إضافةً إلى ما فيه من بديع وتشبيهات.

ينتمي أبو هلال العسكري من حيث النظرة العامة إلى مدرسة الجاحظ الذي يميل للصياغة ويتعصّب للَّفظ ويجعل له الأثر الأكبر في العمليّة الفنيّة، وهو ينقل عن قدامة بن جعفر والآمدي وابن طباطبا وابن قتيبة وعلي بن عبد العزيز الجرجاني. لكنّ قيمة هذا الكتاب تتمثّل في أنّه كان على مقربة من مسألة الأنواع الأدبيَّة.

فإذا كان النقد اليوناني قد قسّم الأنواع الأدبية إلى شِعر غنائي وملحمي ودرامي، فإنَّ الجاحظ قد قسم الكلام إلى كلام موزون، يعني الشِّعر، وآخر منثور وهو يشير هنا إلى الخُطب والرسائل والكلام غير المقفّى على مخارج الأشعار والأسجاع، أراد به القرآن الكريم. أمَّا أبو هلال العسكري فقد أشار إلى هذه المسألة بقوله:

"أجناس الكلام المنظوم ثلاثة: الرسائل والخُطب والشِّعر وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب".

أمّا الشِّعر فقد بُني على الكذب، كما يرى العسكري، والكذب المقصود هنا هو الخيال، وليس نقيض الصدق بالمفهوم الأخلاقي. وقد تحدَّث العسكري عن أغراض الشِّعر وعن ارتباطه بحالات الشاعر النفسيَّة، كما سبق للنقاد العرب من قبل أنْ تحدّثوا. بعد ذلك يشير العسكري إلى الروابط التي تجمع بين الكتابة النثريّة، فهي كلام يخلو من الوزن والقافية، لكنّ الخُطبة شفويّة والرسالة مكتوبة. وقد تغدو الرسالة خطبة أو الخطبة رسالة، لكنَّهما لا يتحوَّلان إلى شِعر إلَّا بشَقّ الأنفس.

وإذا كان أبو هلال العسكري كاد يقترب من مسألة النوع الأدبي من خلال هذا التقسيم الذي أشرنا إليه، فإنّه كغيره من النقاد لم يلتفت إلى السرد، فليس في الموروث النقدي العربي رؤية لهذا اللون من الكتابة تسعى لتأصيلها تاريخيًّا ونقديًّا. ففي الكتابة النقديَّة العربيَّة القديمة تغيب مسألة النشأة والسِّمات والوظائف الخاصَّة بهذا اللون من الكتابة. وقد انشغل النقد العربي بالسِّجَال حول الشِّعر والنثر والمفاضلة بينهما دون أنْ يتوقَّف عند بنية تلك الكتابات وخصائصها الأسلوبيَّة.

لكنّ العسكري وجَّه جلّ اهتمامه للشِّعر فدَرَسَه من خلال تعرّضه للبلاغة والفصاحة والمعاني، وتوقَّف، بتوسّع واضح، عند مسألة السرقات الشعريَّة وأنواعها ومستوياتها. كما توقَّف عند الكتابة النثريَّة وشروطها وضوابطها وأشار إلى عُدَّة الكاتب الضروريَّة.

مُقدِّمة المؤلِّف

قال أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سَهْل لبعضِ إخوانه: اعلَمْ ـ علَّمَك الله الخير، ودَلَّكَ عليه، وقَيَّضَه لك، وجعلَك من أهله ـ أنَّ أحقّ العلوم بالتعلّم، وأوْلَاهَا بالتحفّظ ـ بَعْدَ المعرفة بالله جلّ ثناؤه ـ عِلمُ البلاغة، ومعرفةُ الفَصَاحة، الذي به يُعْرف إعجازُ كتابِ الله تعالى، الناطقِ بالحقّ، الهادي إلى سبيل الرُّشْد، المدلولِ به على صِدْقِ الرسالة وصحَّة النبوّة، التي رفعَتْ أعلامَ الحقّ، وأقامَتْ مَنَارَ الدِّينَ، وأزالت شُبَه الكُفْر ببراهينها، وهتكت حُجُب الشكّ بيقينها.

وقد علمنا أنَّ الإنسان إذا أغْفَل عِلمَ البلاغة، وأخَلَّ بمعرفةِ الفصاحة لم يَقعْ علمُه بإعجاز القرآن من جِهَةِ ما خصَّهُ الله به من حُسْن التأليف، وبَرَاعةِ التركيب، وما شَحَنَه به من الإيجاز البديع، والاختصارِ اللطيف؛ وضَمَّنَه من الحَلَاوَة، وجَلَّلَه من رَوْنَقِ الطَّلَاوَة، مع سهولة كَلِمِه وجَزَالتِها، وعذوبَتِها وسلاسَتِها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخَلْقُ عنها، وتحيَّرَتْ عقولُهم فيها.

وإنّما يُعْرَفُ إعجازُه من جهة عَجْزِ العرب عنه، وقصورهم عن بلوغ غايتِه، في حسنه وبراعته، وسَلَاسَتِه ونَصَاعَتِه، وكمالِ معانيه، وصفاءِ ألفاظه. وقبيحٌ لعَمْري بالفقيه المُؤتَمّ به؛ والقارئ المُهتدي بِهَدْيِهِ، والمتكلِّم المشار إليه في حُسْنِ مناظرتِه، وتمامِ آلته في مجادَلته، وشِدَّةِ شَكِيمَتِه[1] في حِجَاجه؛ وبالعربيّ الصَّليب[2] والقرَشي الصريح[3] ألّا يعرفَ إعجازَ كتابِ الله تعالى إلّا من الجهةِ التي يعرفُه منها الزَّنْجِي[4] والنّبطي[5]، أو أَنْ يُستدِلَّ عليه بما استدلَّ به الجاهلُ الغبيّ.

فينبغي من هذه الجهةِ أنْ يُقدَّم اقتباسُ هذا العِلم على سائرِ العلوم بعد توحيد الله تعالى ومعرفةِ عَدْلِه والتصديقِ بوعده ووعيدِه على ما ذكرنا؛ إذْ كانت المعرفةُ بصحَّة النبوَّة تتلو المعرفةَ بالله جَلَّ اسمُه.

ولهذا العلم بعد ذلك فضائلُ مشهورة، ومناقبُ معروفة؛ منها أنّ صاحبَ العربية إذا أخلَّ بطلبه، وفرَّط في التماسِه، ففاتَتْه فضِيلتُه، وعلِقَتْ به رذيلةُ فَوْتِه، عَفَّى على جميعِ محاسنه، وعَمَّى[6] سائرَ فضائِلِهِ؛ لأنَّه إذا لم يَفْرِقْ بين كلامٍ جيِّد، وآخرَ رديء، ولفظٍ حسن، وآخرَ قبيح؛ وشِعْرٍ نادر، وآخرَ بارد، بَانَ جهْلُه، وظهر نَقْصُه.

وهو أيضًا إذا أراد أنْ يصنَعَ قصيدة، أو يُنْشِئَ رسالة ـ وقد فاته هذا العِلم ـ مزج الصَّفْوَ بالْكَدَرِ، وخَلَط الغُرَرَ بالعُرَرَ[7]، واستعمل الوَحْشِي العَكِر؛ فجعل نفسه مَهْزُأة للجاهل، وعِبْرَةً للعاقِل.

وقد قيل: اختيارُ الرجلِ قطعةٌ من عقله؛ كما أنَّ شِعره قطعةٌ من عِلمه. وما أكثرَ مَنْ وَقَعَ مِن علماء العربيَّة في هذه الرذيلة! منهم الأصمعي في اختياره قصيدة المرقش:

هَلْ بالدِّيارِ أنْ تَجيبَ صَمَمْ

لو أنَّ حيًّا ناطِقًا كَلّمْ

ولا أعرف على أيّ وَجْهٍ صرف اختيارَه إليها، وما هي بمستقيمة الوَزْن، ولا مُونِقَة[8] الرويّ، ولا سَلِسَلة اللفظ، ولا جيِّدة السَّبْك، ولا متلائمة النسج.

وكان المفضَّل يختارُ من الشِّعر ما يقلُّ تَدَاوُلُ الرواة له، ويَكْثُر الغريبُ فيه؛ وهذا خطأٌ من الاختيار، لأنَّ الغريبَ لم يكثر في كلام إلّا أفسده، وفيه دلالة الاستِكْراهِ والتكلّف.

وقال بعضُ الأوائل: تلخيصُ المعاني رِفْق، والتَّشَادُق[9] من غير أهله بُغض، والنظر في وجوه الناس عِيّ، ومسّ اللِّحية هَلَل[10]، والاستعانة بالغريب عَجْز، والخروج عمّا بُنيَ عليه الكلام إسهاب. وكان كثيرٌ من علماء العربيّة يقولون: ما سمعنا بأحسن ولا أفصح من قول ذي الرُّمة:

رَمَتْنِي مَيٌّ بالهوى رَمْيَ مُمْضَعٍ

مِنَ الوَحْشِ لَوْطٍ لم تَعُقْه الأوَانِس[11]

بَعْينَيْنِ نَجْلَاوَيْنِ لم يَجْرِ فيهما

ضَمانٌ وجِيدٍ حُلِّيَ الدُّرَّ شَامسِ[12]

وهذا ـ كما ترى ـ كلامٌ فِجّ غَلِيظ، ووَخِم ثَقيل، لا حظَّ له من الاختيار.

وحكى العتبي عن الأصمعي أنّه كان يستحسنُ قولَ الشاعر:

ولوْ أرسلت من حبـ

ـك مهبوتًا من الصينْ[13]

لَوافيتُك قبل الصْبـ

ـح أو حين تصلينْ

وهما على ما تراهما من دَناءة اللفظ وخَسَاسَتِه، وخلوقة المَعْرِض وقَباحَتِه.

وذكر العتبي أيضًا أن قول جرير:

إنَّ العيونَ الَّتي في طرفِهَا مَرَضٌ

قَتَلْنَنَا ثمَّ لم يُحْيِينَ قَتْلانَا

يَصْرَعْنَ ذا اللُّب حتّى لا حرَاكَ به

وهُنَّ أضْعَفُ خَلْقِ اللهِ أرْكَانَا

وقوله:

إنَّ الذين غَدَوْا بِلُبِّكَ غادَرُوا

وَشَلًا بِعَيْنِكَ لا يَزالُ معِينَا[14]

غيَّضْنَ من عَبَراتِهِنَّ وقُلْنَ لي

ماذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَى وَلَقِينَا[15]

من الشعر الذي يُسْتَحْسَن لجودةِ لفظه، وليس له كبير معنى. وأنا لا أعلم معنى أجود ولا أحسن من معنى هذا الشعر.

فلمّا رأيتُ تخليطَ هؤلاء الأعلام فيما رَامُوه من اختيار الكلام، ووقفتُ على مَوْقِعِ هذا العِلم من الفضْل، ومكانهِ من الشرف والنُّبْلِ، ووجدتُ الحاجة إليه ماسّة، والكتبَ المصَنَّفَة فيه قليلة، وكان أكبرها وأشهرها كتاب "البيان والتَّبيين" لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو لعَمْري كثيرُ الفوائد، جمُّ المنافع، لِمَا اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفِقَر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نَبَّه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة؛ وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة، إلَّا أنّ الإبانةَ عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثةٌ في تَضَاعِيفه، ومنتَشرةٌ في أثنائه؛ فهي ضالَّةٌ بين الأمثلة، لا تُوجَدُ إلَّا بالتأمُّل الطويل، والتصفُّح الكثير؛ فرأيتُ أنْ أعملَ كتابي هذا مشتملًا على جميع ما يُحْتَاجُ إليه

في صنعة الكلام: نثرِه ونَظْمِه، ويُستعمل في محلوله ومعقوده، من غير تقصير وإخلال، وإسهاب وإهذار.

البلاغة

البلاغة من قولهم: بلَغْتُ الغايةَ إذا انتهيتُ إليها وبلَّغْتُهَا غيري. ومبلغُ الشيء: مُنْتَهاه. والمبالغةُ في الشيء: الانتهاء إلى غايته. فسمِّيت البلاغة بلاغةً لأنَّها تُنْهي المعنى إلى قلب السامع فيفَهمه. وسمِّيت البُلْغَة بُلْغَة لأنَّك تتبلَّغُ بها، فتنتهي بكَ إلى ما فوقها، وهي البَلَاغ أيضًا. ويقال: الدنيا بَلَاغ، لأنَّها تؤدِّيكَ إلى الآخرة. والبلاغ أيضًا: التبليغ، في قولِ الله ـ عزَّ وجلَّ-: (هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ) [إبراهيم: 52] أيْ تَبليغ. ويقال: بَلُغَ الرجلُ بلاغة؛ إذا صار بليغًا، كما يُقَال نَبُلَ نَبَالة؛ إذا صار نبيلًا. وكلامٌ بليغ وبَلَغ (بالفتح)، كما يقال: وجيزَ ووَجْز. ورجل بِلْغ (بالكسر): يَبْلُغُ ما يريد. وفي مَثَل لهم "أحمق بِلغ". ويقال: أبْلَغْتُ في الكلام إذا أتيت بالبلاغة فيه، كما تقول: أبْرَحْت إذا أتيت بالبُرَحَاء وهو الأمرُ الجسيم. والبلاغةُ من صِفَةِ الكلام لا من صفة المتكلِّم.

فلهذا لا يجوزُ أنْ يسمَّى اللهُ ـ جلّ وعزّ ـ بأنَّه بليغ؛ إذ لا يجوزُ أنْ يوصَفَ بصفةٍ كان موضوعها الكلام. وتسميتُنا المتكلِّم بأنَّه بليغ توسُّع. وحقيقته أنَّ كلامَه بليغ، كما تقول: فلان رجلٌ مُحكَم، وتَعْنِي أنَّ أفعالَه مُحكَمة. قال الله تعالى: (حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ) [القمر: 5]. فجعل البلاغةَ من صفة الحِكْمة، ولم يجعلها من صفةِ الحكيم، إلّا أنَّ كثرةَ الاستعمال جعلت تسميةَ المتكلِّم بأنَّه بليغ كالحقيقة، كما أنَّها جعلت تسميةَ المَزَادَةِ رَاوية كالحقيقة، وكان الراوية حامل المزادة وهو البعير وما يجري مَجْرَاه، ولهذا سُمّي حاملُ الشِّعر رَاوِية.

الفصاحة

فأمّا الفصاحة فقد قال قوم: إنَّها من قولهم: أفصحَ فلانٌ عمَّا في نفسه إذا أظهره، والشاهد على أنّها هي الإظهار قول العرب: أفصحَ الصبحُ إذا أضاء. وأفصحَ اللبنُ إذا انجلت عنه رَغْوته فظهر. وفَصُح أيضًا. وأفصح الأعجميّ إذا أبانَ بعد أنْ لم يكن يُفْصِح ويُبين؛ وفصح اللحان إذا عبَّر عمّا في نفسه وأظهره على جهة الصواب دون الخطأ.

وإذا كان الأمرُ على هذا فالفصاحةُ والبلاغةُ ترجعَان إلى معنى واحد وإنِ اختلف أصلاهما؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما إنّما هو الإبانةُ عن المعنى والإظهارُ له.

وقال بعضُ علمائنا: الفصاحةُ تمامُ آلة البيان؛ فلهذا لا يجوزُ أنْ يسمَّى اللهُ تعالى فصيحًا؛ إذْ كانت الفصاحة تتضمَّن معنى الآلة ولا يجوزُ على الله تعالى الوصفُ بالآلة؛ ويوصفُ كلامُه بالفصاحة؛ لما يتضمَّنُ من تمام البيان.

والدليلُ على ذلك أنّ الألْثَغَ والتمتام لا يسمَّيان فصيحين لنُقْصان آلتِهما عن إقامة الحروف. وقيل زياد الأعجم لنُقْصَانِ آلةِ نطقِه عن إقامةِ الحروف، وكان يعبِّر عن الحِمَار بالهِمَار، فهو أعجم، وشِعرُه فصيح لتمام بيانِه.

الفرق بين
الفَصاحة والبَلاغة

فعلى هذا تكونُ الفصاحة والبلاغة مختلفتين؛ وذلك أنَّ الفصاحة تمامُ آلة البيان فهي مقصورةٌ على اللفظ؛ لأنَّ الآلةَ تتعلَّق باللفظ دون المعنى؛ والبلاغةُ إنَّما هي إنْهَاءُ المعنَى إلى القلبِ فكأنَّها مقصورةٌ على المعنى.

ومن الدليلِ على أنَّ الفصاحة تتضمَّن اللفظَ، والبلاغةَ تتناولُ المعنى أنَّ البَبغْاء يُسمّى فصيحًا، ولا يُسمَّى بليغًا، إذْ هو مقيمُ الحروفِ وليس له قَصْدٌ إلى المعنى الذي يؤدِّيه.

وقد يجوزُ مع هذا أنْ يُسمَّى الكلامُ الواحدُ فصيحًا بليغًا إذا كان واضحَ المعنى، سهلَ اللفظ، جيَّد السَّبْك، غير مستَكْرَه فِجّ، ولا متكلَّف وَخِم[16]، ولا يمنَعُه من أحدِ الاسمين شيءٌ، لما فيه من إيضاحِ المعنى وتقويمِ الحروف.

وشهدتُ قومًا يذهبون إلى أنَّ الكلام لا يُسمَّى فصيحًا حتى يجمعَ مع هذه النعوت فخامةَ وشدةَ جَزَالة، فيكون مثل قول النبي عليه الصلاة والسلام: "ألَا إنّ هذا الدِّينَ متين فأَوْغِلْ فيه برِفْقٍ، فإنّ المُنبَتَّ لا أرضًا قَطع ولا ظَهْرًا أبقى". ومثل كلام الحسين بن علي رضي الله عنهما: إنّ الناسَ عبيدُ الأموال، والدِّين لَغْوٌ على ألسنتهم يحوطونه ما درت به معايشهم فإذا محصوا بالابتلاء قلَّ الديانون. ومثل المنظوم قول الشاعر:

ترى غابة الخَطيّ فوق رُؤوسهم

كما أشرَفَتْ فوق الصُّوارِ قُرونُها[17]

قالوا: وإذا كان الكلامُ يجمع نعوتَ الجَوْدَةِ، ولم يكن فيه فَخَامةٌ وفضلُ جزالة سُمِّي بليغًا ولم يُسَمَّ فصيحًا؛ كقول بعضهم ـ وقد سئل عن حاله عند الوفاة فقال: ما حالُ مَن يريدُ سفرًا بعيدًا بلا زَاد، ويَقْدِم على ملكٍ عادلٍ بغير حُجّة، ويَسْكُنُ قبرًا مُوحِشًا بلا أنيسٍ.

وقول آخر لأخ له: مددتَ إلى المودّة يدًا فشكرناك، وشفَعْتَ ذلك بشيء من الجفاء فعذَرْنَاك، والرجوعُ إلى محمود الودّ أولى بك من المُقام على مكروه الصَّدِّ.

وقال إبراهيم بن العباس:

تَمُرُّ الصَّبَا صفحًا بساكِنَةِ الغَضَا

ويَصْدَعُ قلبي أنْ يَهُبّ هبوبُها

قريبة عهدٍ بالحبيب وإنَّما

هوى كلِّ نفس حيث حلَّ حبيبُها

فالبيتُ الأول فصيح وبليغٌ، والبيت الثاني بليغٌ وليس بفصيح.

واستدلّوا على صحَّةِ هذا المذهب بقول العاص بن عدي: الشجاعةُ قلبٌ ركين، والفصاحةُ لسان رَزين. واللسانُ ها هنا: الكلام، والرَّزِينُ الذي فيه فخامةٌ وَجَزالة.

وليس الغرضُ في هذا الكتاب سلوكَ مذهب المتكلّمين، وإنّما قصدتُ فيه مقصد صُنَّاعِ الكلام من الشّعراء والكُتَّاب؛ لهذا لم أُطِلِ الكلامَ في هذا الفصل.

في الإبانة عن حدِّ البلاغة

فنقول: البلاغةُ كلُّ ما تُبَلَّغ به المعنى قلبَ السامع فتمكّنه في نفس كتمكُّنِهِ في نفسك مع صُورةٍ مقبولة ومعرض حسن.

وإنّما جعلنا حُسْنَ المعرض وقَبُوَل الصورة شرطًا في البلاغة؛ لأنَّ الكلامَ إذَا كانت عباراتُه رثَّة ومعرضه خَلَقًا لم يُسَمَّ بليغًا، وإنْ كان مفهوم المعنى مكشوف المَغْزَى.

ألَا ترى إلى معنى الكاتب الذي كتب إلى بعض معامليه: قد تأخَّرَ الأمرُ فيما وعدتَ حمله ضَحْوَة النهار، والقومُ غيرُ مقيمين، وليس لهم صَبْرِي، وهم في الخروج آنفًا؛ فإنْ رأيتَ في إزاحة العلّة مع الجِهبذِ فعلْتَ إن شاء الله. فمعناه مفهوم ومَغْزَاه معلوم، وليس كلامه ببليغ.

فهذا يدلُّ على أنّ من شرط البلاغة أنْ يكونَ المعنى مفهومًا واللفظُ مقبولًا على ما قدّمناه.

ومَن قال: إنَّ البلاغةَ إنَّما هي إفهامُ المعنى فقط، فقد جعل الفصاحةَ، واللُّكْنَة، والخطأ، والصواب، والإغلاق، والإبَانة سواء.

وأيضًا فلو كان الكلامُ الواضحُ السهلُ، والقريبُ السَّلس الحُلْو بليغًا، وما خالفه من الكلام المستبهَم المستغلق والمتكّلف المتعقّد أيضًا بليغًا لكان كلٌّ ذلك محمودًا وممدوحًا مقبولًا، لأنّ البلاَغة اسم يُمْدَحُ

به الكلام.

فلمَّا رأينا أحدَهما مُستحسَنًا، والآخرَ مُستهجَنًا علمنا أنَّ الذي يُستحسَن البليغ، والذي يُستهجَن ليس ببليغ.

وقال العتَّابي: كلُّ مَنْ أفهمك حاجتَه فهو بليغ. وإنّما عنى: إنْ أفهمَك حاجتَه بالألفاظِ الحسنة، والعبارة النيِّرة فهو بليغ.

ولو حَمَلْنَا هذا الكلام على ظاهره للزمِ أنْ يكونَ الألْكَنُ بليغًا؛ لأنَّه يُفْهِمنا حاجته؛ بل ويلزم أنْ يكونَ كلُّ الناس بُلَغاء حتى الأطفال، لأنَّ كلَّ أحد لا يعدم أنْ يدلَّ على غرضه بعجُمَتِه أو لُكْنَته أو إيمائه أو إشارته؛ بل لَزِم أنْ يكون طائر السِّنَّوْر بليغًا؛ لأنَّا نستدل بضُغَائه[18] على كثير من إرادته. وهذا ظاهرُ الإحالةَ.

ونحن نَفْهَمُ رَطانة السُّوقي[19]. وجَمْجَمَة[20] الأَعجمي لِلْعَادة التي جرَتْ لنا في سماعها. لا لأنَّ تلك بلاغة؛ ألَا ترى أنّ الأعرابيّ إنْ سمع ذلك لم يفهمه؛ إذْ لا عادة له بسماعه.

وأراد رجلٌ أنْ يسألَ بعضَ الأَعراب عن أهله فقال: كيفَ أهلِكُ؟ بالكسر. فقال له الأعرابي: صَلْبًا، إذْ لم يشكّ أنّه إنّما يسأله عن السبب الذي يَهْلَك به.

وقال الوليد بن عبد الملك لأعرابي شكا إليه خَتَنًا[21] له، فقال: من خَتَنَك؟ ففتح النون. فقال مُعْذِر[22] في الحي؛ إذْ لم يشكَّ في أنّه إنّما يسأله عن خَاتِنه.

وقال رجل لأعرابي: أَلقي عليك بيتًا. فقال: ألقِ على نفسك. وسمع أعرابيٌّ قصيدة أبي تمام:

طَلَلَ الجميع لَقَدْ عفَوْتَ حمَيدًا[23]

فقال: إنّ في هذه القصيدة أشياءَ أفهمها، وأشياءَ لا أفهمها؛ فإمّا أنْ يكونَ قائلُها أشعرَ من جميع الناس، وإمّا أنْ يكون جميعُ الناس أشعرَ منه. ونحن نفهمُ معانيَ هذه القصيدة، لعادتنا بسماع مثلها، لا لأنّا أعرف بالكلام من الأعراب.

وممّا يؤيِّدُ ما قلنا من أَنَّ البلاغةَ إنّما هي إيضاحُ المعنى وتحسينُ اللفظ قولُ بعض الحكماء: البلاغةُ تَصْحِيحُ الأقسام، واختيارُ الكلام. إلى غير ذلك ممّا سنذكره ونفسِّره في هذا الباب إن شاء الله.

وقال محمدُ بن الحنفية: البلاغةُ قول تُضطرُّ العقولُ إلى فهمه بأسْهل العبارة؛ فقوله: "تُضطرُّ العقول إلى فهمه" عبارةٌ عن إيضاح المعنى، وقوله: "بأسهلِ العبارة" تنبيهٌ على تسهيلِ اللفظ وترك تنقيحه. ومثل ذلك من النثر قول بعضهم لأخ له: ابتدأْتَني بلطف من غيرِ خِبْرَة، ثمَّ اعقَبْتَني جفًا من غيرِ هَفْوَة، فأطْمَعنِي أوَّلُك في إخائك، وأيْأَسَنِي آخرُك من وَفَائك؛ فسبحانَ من لو شاء كشف إيضاحَ الرأي في أمرك عن عزيمة الشكِّ في حالك؛ فأقَمْنا على ائتِلَاف، أو افترقْنَا على اختلاف.

وقول الآخر: لم يَدَع انقباضُك عن الوفاء، وانجذابُك مع سوء الرأي في ملاحظة الهجر، والاستمرار على العذر، محرِّكًا من القلب عليك، ولا خاطرًا يُومِئ إلى حُسْنِ الظنّ بك. هيهات انقضَت مُدَّةُ الانخداع لك حين أخلفت عدّة الأماني فيك، وما وجدنا ساترًا من تأنيب النُّصَحَاء في الميل إليك، والتوفُّر عليك، إلّا الإقرارَ بطاعةِ الهوى، والاعترافَ بسوء الاختيار.

وكتب بعضُ الكُتَّاب إلى أخ له: تأخرَتْ عنِّي كتُبُك تأخُّرًا ساء له ظنّي، إشفاقًا من الحوادث عليك، لا توهُّمًا للجفاء منك؛ إذْ كنتُ أثِقُ من مودَّتك بما يُغْنِيني عن مُعَاتَبَتِك.

وممّا هو في هذه الطريقة، وهو أجزلُ مما تقدَّم ما أخبرنا به أبو عبد الرحمن، قال: وقف علينا أعرابي ونحن برملة اللِّوى، فقال: رَحِمَ الله امْرًأ لم تمجّ[24] أذناه كلامي، وقدم مَعَاذَه[25] من سُوءِ مقامي؛ فإنَّ البلادَ مُجْدِبة، والحال مُسْغِبة[26]، والحياءُ زاجر يمنَعُ من كلامكم، والفقر عاذِرٌ يدعو إلى إخباركم، والدعاءُ إحدى الصدَقَتَيْن؛ فرحِمَ الله امرءًا أمر بِمَيْر[27]، أو دَعَا بخير.

وقول بعضهم ـ يمدح رجلًا: كان والله بعيدَ مسافة الرأي، يرمي بهمَّتِه حيثُ أشار الكرم، يصافحُ عن صاحبه نُوَبَ الزمان، ويتحَسَّى مرارة الإخوان، ويُسِيغُهم العَذْبَ، ويعطفهم منه على ماجِدٍ نَدْب[28].

في معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ

إذا أرَدْتَ أنْ تصنع كلامًا فأَخطر معانِيَه ببالك، وتنوَّقْ[29] له كرائِمَ اللفظِ، واجعلها على ذِكْر منك؛ ليقربَ عليك تَنَاوُلُهَا، ولا يتعبك تطلُّبُها، واعمله ما دُمْتَ في شَبَابِ نَشاطِك؛ فإذا غَشِيَك الفُتُور، وتخوَّنَكَ المَلَال فأمَسْكْ؛ فإنَّ الكثيرَ مع المَلَال قليل، والنفيسَ مع الضَّجَر خَسِيس؛ والخواطر كالينابيع يسقى منها شيءٌ بعد شيء، فتجد حاجَتَك من الرّي، وتنال أرَبَك من المنفعة. فإذا أكثرت عليها نَضَب ماؤها، وقلّ عنك غَنَاؤُها.

وينبغي أنْ تجريَ مع الكلام معارضة، فإذا مررتَ بلَفظٍ حَسَنٍ أخذت برقبته، أو معنى بديع تعلقّتَ بذيله، وتحذّر أنْ يسبقك فإنه إنْ سَبَقَكَ تعبت في تتبّعه، ونَصِبتَ في تطلّبه، ولعلّك لا تلحقه على طُولِ الطلب، ومُوَاصَلة الدأب؛ وقد قال الشاعر:

إذا ضيَّعْتَ أولَ كلّ أمرٍ

أبَتْ أعجازُه إلّا الْتِوَاءَ1

وقالوا: ينبغي لصانعِ الكلام ألَّا يتقدَّم الكلام تقدُّما، ولا يتبع ذُنَابَاه تَتَبُّعًا، ولا يحمله علي لسانه حملًا؛ فإنّه إنْ تقدَّم الكلامَ لم يتبعه خفيفه وهزيلُه وأعجفُه والشارد منه. وإنْ تتبعه فاتته سوَابقُه ولواحقه، وتباعدَتْ عنه جِيادُه وغُرَرُه؛ وإنْ حمله على لسانه ثَقُلَتْ عليه أوساقه وأعباؤه، ودخلَتْ مساويه في مَحَاسِنِه.

وقال بشرُ بن المُعْتَمرُ: خُذْ من نَفَسِك ساعةً لنشاطك، وفراغ بالِك، وإجابتِها لك؛ فإنَّ قلبك في تلك الساعة أكرمُ جوهرًا، وأشرقُ حُسْنًا، وأحْسَن في الأسماع، وأحْلَى في الصدور، وأسلمُ من فاحش الخطأ، وأجْلَبُ لكلّ غُرَّةٍ من لفظٍ كريم، ومَعْنًى بديع.

واعلمْ أنَّ ذلك أجْدَى عليكَ مِمّا يُعْطِيكَ يومُك الأطول بالكَدِّ والمطالبة والمُجاهَدة والتكَلُّف والمُعَاوَدَة؛ ومهما أخْطَأك لم يُخْطِئُك أنْ يكونَ مقبولًا قَصْدًا، وخفيفًا على اللسان سَهْلًا؛ وكما خرج عن ينبوعه، ونَجَم من مَعدنه.

وإياك والتوعّر[30]؛ فإن التوعُّرَ يُسْلمك إلى التعقيد، والتعقيدُ هو الذي يسْتَهْلِكُ معانيك، ويَشِينُ ألفاظك، ومَنْ أرَاغَ مَعْنًى كريمًا فلْيَلْتَمِسْ له لفظًا كريمًا؛ فإنَّ حقَّ المعنى الشريف اللفظُ الشريف، ومِنْ حقهما أنْ يصونَهُمَا عمَّا يدنِّسُهما ويُفْسِدهما ويهجنهما، فتصير بهما إلى حدٍّ تكون فيه أسوأ حالًا منك قبل أنْ تَلْتَمِسَ منازلَ البلاغة، وتَرْتَهِنَ نفسَك في ملابستهما، فكن في ثلاث منازل:

فأوَّلُ الثلاثِ أن يكونَ لفظُك شريفًا عذبًا، وفخمًا سهلًا، ويكونَ معناك ظاهرًا مكشوفًا، وقريبًا معروفًا. فإنْ كانت هذه لا تُوَاتيك، ولا تَسْنَحُ لك عِنْد أوّلِ خاطر، وتَجِد اللفظةَ لم تَقَعْ موقعها، ولم تصِلْ إلى مركزها، ولم تتَّصِلْ بسِلْكِها[31][32]، وكانت قَلِقةً في موضعها، نافرةً عن مكانِها، فلا تُكْرهْها على اغتصاب الأماكن، والنزولِ في غير أوْطانها؛ فإنَّك إنْ لم تتعاطَ قَريضَ الشِّعر المنَظوم، ولم تتكلّفْ اختيار الكلام المنثور لم يَعْبك بذلك أحد، وإنْ تكلَّفتَه ولم تكن حاذقًا مطبوعًا، ولا مُحْكِمًا لشأنِك بصيرًا عابك مَن أنْت أقلُّ عَيْبًا منه، وزرَى عليك مَنْ هُوَ دونك.

فإنْ ابتُليتَ بتكلّف القول، وتَعَاطِي الصناعة، ولم تَسْمَحَ لك الطبيعةُ في أوَّلِ وَهْلة، وتَعَصَّى عليكَ بعد إجالة الفِكرة، فلا تَعْجَل، ودَعْهُ سَحَابة يَوْمِك ولا تَضْجَر، وأمْهِلة سواد ليلتك، وعاوِدْه عند نَشَاطِك؛

فإنَّك لا تعدم الإجابةَ والمُوَاتاة إنْ كانت هناك طبيعةٌ وجريت من الصناعة على عِرْق[33]؛ وهي المنزلة الثانية.

فإنْ تمنَّع عليك بعد ذلك مع ترويح الخاطر، وطول الإمهال، فالمنزلة الثالثة أنْ تتحوّل عن هذه الصناعة إلى أشْهَى الصناعاتِ إليك، وأخفّها عليك؛ فإنّك لم تشتهها إلّا وبينكما نَسَب، والشيءُ لا يَحِنُّ إلّا إلى ما شاكَلَه، وإنْ كانت المشاكلةُ قد تكونُ في طبقاتٍ؛ فإنّ النفوسَ لا تجودُ بمكنونها، ولا تسمح بمَخْزُونِها مع الرهبة، كما تجودُ مع الرَّغْبة والمحبَّة.

وينبغي أنْ تعرف أقدارَ المعاني، فتوازنَ بينها وبَيْنَ أوْزَانِ المستمعين، وبَيْنَ أقْدَارِ الحالات؛ فتجعل لكلِّ طبقةٍ كلامًا، ولكلِّ حالٍ مَقَامًا، حتى تقسم أقْدَار المعاني على أقْدَار المَقَامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات.

واعلمْ أنَّ المنفعة مع مُوَافقة الحال، وما يجبُ لكلِّ مقام من المقال؛ فإنْ كنت متكلِّمًا، أو احتجتَ إلى عملِ خطبة لبعض مَنْ تَصْلُحُ له الخُطَب، أو قصيدةٍ لبعض ما يُرَاد له القصيد، فتخَطَّ ألفاظَ المتكلِّمين، مثل الجسم والعَرَضِ والكَوْنِ والتأليف والجَوْهَر، فإنَّ ذلك هُجْنَةٌ.

الرسائل والخُطَب

واعلم أنَّ الرسائلَ والخُطَبَ متشاكِلَتَان في أنّهما كلامٌ لا يلحقه وَزْنٌ ولا تَقْفِية، وقد يتشاكلان أيضًا من جهة الألفاظِ والفواصل؛ فألفاظُ الخطباءِ تُشْبِه ألفاظَ الكُتّاب في السهولة والعُذوبَة؛ وكذلك فواصلُ الخطب، مثلُ فواصل الرسائل؛ ولا فَرْقَ بينهما إلّا أنّ الخُطْبة يُشَافَه بها، والرسالةُ يُكْتَبِ بها؛ والرسالةُ تُجْعَل خُطبة، والخُطبة تُجْعَل رسالة، في أيسر كُلْفة، ولا يتهيَّأ مثلُ ذلك في الشِّعر مِنْ سرعة قلبه وإحالته إلى الرسائل إلّا بكلفة؛ وكذلك الرسالةُ والخُطْبَة لا يُجْعَلان شِعْرًا إلّا بمشقّة.

وممّا يُعْرَف أيضًا من الخطابة والكتابة أنّهما مختصَّتان بأمْرِ الدِّين والسلطان، وعليهما مَدَارُ الدّار، وليس للشِّعْرِ بهما اختِصاصٌ.

أمّا الكتابة فعليها مَدَار السلطان.

والخطَابُة لها الحظُّ الأوفر من أمر الدِّين؛ لأنَّ الخُطبة شَطْرُ الصلاة التي هي عمادُ الدِّين في الأعيادِ والجمعات والجماعات، وتشتَمِلُ على ذِكْرِ المواعظ التي يجبُ أنْ يتعهَّدَ بها الإمَامُ رَعِيَّتَه لئلَّا تدرس من قلوبهم آثارُ ما أنزلَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من ذلك في كتابه، إلى غير ذلك من منافع الخُطَب.

ولا يقعُ الشِّعر في شيء مِنْ هذه الأشياء موقعًا، ولكنَّ له مواضعَ لا يَنْجَعُ فيها غَيْرُه من الخُطبِ والرسائل وغيرها، وإنْ كان أكثرُه قد بُنِي على الكَذبِ والاستِحَالة من الصِفات الممتنعة، والنعوتِ الخارجةِ عن العادات والألفاظِ الكاذبة؛ من قَذْفِ المحصنات، وشهادة الزور، وقول البُهْتَانِ، لا سيَّما الشِّعرُ الجاهليّ الذي هو أقوى الشِّعر وأفَحَله؛ وليس يُرَاد منه إلّا حُسْنُ اللفظ، وجودةُ المعنى؛ هذا هو الذي سوَّغ استعمال الكذب وغيره مما جرى ذكره فيه.

وقيل لبعض الفَلاسِفة: فلان يَكْذِبُ في شعره؛ فقال: يُرَادُ من الشاعر حُسْنُ الكلام، والصِّدق يُرَادَ مِنَ الأنبياء.

ميزات الشِّعر

فمن مراتبه العاليةِ التي لا يلحقه فيها شيء من الكلام النَّظْمُ الذي به زِنَة الألفاظ، وتمامُ حسنِها، وليس شيء من أصنافِ المنظوماتُ يبلغُ في قوّة اللفظ منزلةَ الشِّعر.

وممّا يَفْضُلُ به غيرَه أيضًا طولُ بقائه على أفْوَاهِ الرُّواة، وامتِدادُ الزمانِ الطويل به؛ وذلك لارْتِبَاط بعضِ أجزائه ببعض؛ وهذه خاصةٌ له في كلِّ لغةٍ، وعند كلِّ أُمَّة؛ وطولُ مدَّة الشيء من أشرفِ فضائله.

وممّا يَفْضُل به غيرَه من الكلام استِفاضَتُه في الناس وبعدُ سَيْرِه في الآفاق؛ وليس شيء أسيرَ من الشِّعر الجيّد، وهو في ذلك نظيرُ الأمثال.

وقد قيل: لا شيء أسبقَ إلى الأسماع، وأوقَعَ في القلوب، وأبقى على الليالي والأيام من مثلٍ سائر، وشِعرٍ نادر.

وممّا يَفْضُل به غيره أنَّه ليس يُؤَثِّر في الأعراض والأنساب تأثيرَ الشِّعر في الحمد والذمّ شيءٌ من الكلام؛ فكم من شريف وَضَع، وخاملٍ دنئ رَفَع؛ وهذه فضيلةٌ غيرُ معروفة في الرسائل والخُطب.

وممّا يَفْضُلُهما به أيضًا أنَّه ليس شيء يقومُ مقامَه في المجالس الحافلة، والمشاهدِ الجامعة، إذا قام به مُنْشِد على رؤوسِ الأشْهَادِ، ولا يَفُوزُ أحدٌ من مؤلّفي الكلام بما يفوزُ به صاحبُه من العطايا الجزيلة، والعَوَارِف السنّية، ولا يهتزّ مَلِكٌ، ولا رئيسٌ لشيء من الكلام كما يهتزٌّ له، ويَرْتَاحُ لاستماعه؛ وهذه فضيلةٌ أخرى لا يلحَقُه فيها شيء من الكلام.

ومنه أنّ مجالس الظُّرفاء والأدباء لا تَطِيبُ، ولا تُؤْنس إلّا بإنشاد الأَشْعَار، ومُذَاكرة الأخبار؛ وأحْسَنُ الأخبار عندهم ما كان في أثنائها أشْعار؛ وهذا شيء مفقودٌ في غير الشِّعر.

وممّا يَفْضُل به الشِّعر أنَّ الألحان التي هي أهْنَى اللَّذات إذا سمعها ذَوُو القَرَائح الصافية، والأنفسِ اللطيفة، لا تتهيَّأ صَنْعَتها إلّا على كلّ منظوم من الشِّعر؛ فهو لها بمنزلةِ المادّة القابلة لصورها الشريفة؛ إلّا ضَرْبًا من الألحان الفارسية تُصَاغ على كلامٍ غيرِ منظوم نَظْمَ الشِّعر، تمطّط فيه الألفاظ؛ فالألحان منظومة، والألفاظ منثورة.

ومن أفْضَلِ فضائلِ الشِّعر أنَّ ألفاظَ اللغةِ إنّما يُؤْخَذ جَزْلُها وفصيحُها، وفَحْلُها وغَرِيبها من الشِّعر؛ وَمَنْ لم يكن رَاوِيةً لأشعار العرب تبيَّن النقصُ في صِنَاعته.

ومن ذلك أيضًا أنّ الشواهدَ تُنْزَعُ من الشِّعر، ولولاه لم يَكُنْ على ما يلْتَبِس من ألفاظِ القرآن وأخبار الرسول عليه الصلاة والسلام شاهِد.

وكذلك لا نَعْرف أنْسَاب العرب وتواريخها وأيَّامها ووقائعها إلَّا من جملة أشعارها؛ فالشِّعرُ ديوانُ العرب، وخزانة حِكْمَتِها، ومستَنْبَط آدابها، ومُسْتَوْدَع علومها؛ فإذا كان ذلك كذلك فحاجةُ الكاتب والخطيب وكلِّ متأدِّبٍ بلغة العرب أو ناظرٍ في علومها إليه ماسّة وفاقَتُه إلى روايته شديدة.

وأمّا النقص الذي يَلْحَقُ الشِّعر من الجهات التي ذكرناها فليس يُوجب الرغبةَ عنه والزّهادة فيه، واستثناءُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في أمر الشُّعراء يدلّ على أنّ المذموم من الشِّعر إنَّما هو المعدولُ عن جِهَة الصواب إلى الخطأ والمصروفُ عن جهة الإنصاف والعَدْلِ إلى الظلم والجَوْر.

وإذا ارتفعت هذه الصفات ارتفع الذمّ، ولو كان الذمُّ لازمًا له لكَوْنِه شِعْرًا لما جازَ أنْ يَزُولَ عنه على حال من الأحوال. ومع ذلك فإنَّ من أكْمَل الصفات صفاتِ الخطيب والكاتب أنْ يكونا شاعِرَين كما أنَّ من أتمِّ صفات الشاعر أنْ يكون خطيبًا كاتبًا. والذي قصَّر بالشِّعر كثرتُه وتَعَاطى كلِّ أحدٍ له حتى العامة والسفلة؛ فلحقه مِنَ النقص ما لَحِق العُودَ والشّطْرنج حين تعاطاهما كلّ أحد.

ومن صفات الشعر الذي يختصُّ بها دونَ غيره أنّ الإنسانَ إذا أراد مَديح نفسِه فأنشأ رِسالة في ذلك أو عَمِل خطبة فيه جاء في غاية القَبَاحة، وإن عَمِل في ذلك أبياتًا من الشعر احْتُمِل.

ومن ذلك أنَّ صاحبَ الرياسة والأبّهة لو خَطَب بذِكْر عَشِيق له، وَوَصَف وَجْدَه به، وحَنِينَه إليه، وشُهْرتَه في حُبِّه، وبُكاءه من أجْلِه لاسْتُهْجِنَ منه ذلك، وتنقّص به فيه؛ ولو قال في ذلك شِعرًا لكان حسنًا.

كيف تكتب الشِّعر؟

وإذا أردت أنْ تعمل شعرًا فأحضر المعاني التي تُريد نَظْمَها فِكْرَك، وأَخْطِرها على قلبك، واطلُبْ لها وَزْنًا يتأتّى فيه إيرادُها وقافيةً يحتملها؛ فمن المعاني ما تتمكّن من نَظْمِه في قافية ولا تتمكّن منه في أخرى، أو تكون في هذه أقربَ طريقًا وأيْسر كُلْفَة منه في تلك؛ ولأنْ تَعْلُوَ الكلامَ فتأخذه من فوق فيجيء سِلِسًا سهلًا ذا طلاوة ورَوْنق خيرٌ من أنْ يَعْلُوك فيجيء كَزًّا[34] فجًّا ومتجعدًا جلفًا.

فإذا عملتَ القصيدة فهذِّبها ونقِّحها؛ بإلقاء ماغَثَّ من أبياتها، ورَثَّ ورَذُل، والاقتصار على ما حَسُنَ وفخم، بإبدالِ حرفٍ منها بآخرَ أجودَ منه، حتى تستوى أجزاؤها وتَتَضَارَع هَوَادِيها وَأعْجَازها.

قال أبو بكر بن دريد:

طَرَقَتْكَ عَزَّةُ مِنْ مَزَارٍ نَازِحٍ

يا حُسْنَ زَائِرةٍ وبُعدَ مزارِ

ثم قال أبو بكر: لو قال: "يا قُرْبَ زَائرة وبُعْدَ مَزارَ" لكان أجودَ. وكذلك هو لتضمّنه الطِّباق.

قال المنتجع بن نبهان سمعت الأشهب بن جميل يقول: أنا أوَّل من ألقى الهجاء بين جرير وابن لجأ، أنشدتُ جريرًا قوله:

تصطَكُّ إلحيها[35] على دلائِهَا[36]

تلاطُمَ الأزْدِ على عَطَائِهَا

حتى بلغتُ إلى قوله:

تجرُّ بالأهْوَنِ من دُعَائِهَا

جَرَّ العجوزِ الثَّني مِنْ كِسائِهَا[37]

فقال جرير: ألَا قال: "جرَّ الفتاةِ طرفي ردائها" فرجعت إلى ابن لجأ فأخبرته. فقال: والله ما أردت إلا ضعفة العجوز؛ ووقع بينهما الشرّ. وقول جرير: "جَرَّ العروسِ طَرَفَى ردائها". أحسن وأظرف وأحْلى من قول عمرو بن لجأ: "جرّ العجوز الثني من كسائها". وليس في اعتذار ابن لجأ بضعفة العجوز فائدة؛ لأنّ الفتاةَ معها من الدلال ما يَقُومُ في الهوينا مقام ضعفة العجوز. وإنكار جرير قوله: "الثَّني من كسائها" نَقْدٌ دقيق، وإنّما أنْكَرَهُ لأنَّ فيه شعبة من التكلّف. وقول جرير: "طَرَفَيْ ردائها" أسْلَس وأسهل وأقلّ حروفًا.

وقولك: رأيت الإيعازَ بذلك أجودُ من قولِكَ: رأيتُ أنْ أوعِز بذلك؛ كذا وجدتُ حُذَّاقَ الكتَّابِ يقولون. وعجبت من البحتري كيف قال:

لعَمْرُ الغَوَانِي يَوْمَ صَحْرَاءِ أرْبَد

لقد هيَّجتْ وَجْدًا على ذِي توجُّدِ

ولو قال: "على متوجد" لكان أسْهل وأسْلس وأحْسن.

الحَوليَّات

وقد كان هذا دَأْبَ جماعةٍ من حُذّاق الشعراء من المحدَثين والقدماء، منهم زُهير؛ كان يَعْمَلُ القصيدةَ في ستة أشهر ويهذِّبُها في ستة أشهر، ثم يُظْهِرها، فتسمَّى قصائدُه الحوليات لذلك.

وقال بعضهم: خيرُ الشِّعر الحولي المنقَّح، وكان الحُطيْئَةُ يعملُ القصيدةَ في شهر، وينظرُ فيها ثلاثة أشهر ثم يُبْرِزُها. وكان أبو نواس يَعْمَلُ القصيدةَ ويتركُهَا ليلةً، ثم يَنْظُرُ فيها فيُلقَى أكثرَها ويقتصر على العيونَ منها؛ فلهذا قَصُرَ أكثر قصائده.

وكان البحتري يُلْقي من كلّ قصيدة يَعْمَلُها جميعَ ما يَرْتَابُ به فخرج شعرهُ مهذَّبا.

وكان أبو تمام لا يفعلُ هذا الفعل، وكان يَرْضَى بأوّل خاطرٍ فنعى عليه عيب كثير.

وتخيُّر الألفاظِ، وإبدالُ بعضها من بعض يُوجِبُ التئام الكلام؛ وهو من أحْسَنِ نعوته وأزْينِ صفاتِه، فإنْ أمكن مع ذلك منظومًا من حروفٍ سهلةِ المخارج كان أحسنَ له وأدعى للقلوب إليه، وإنّ اتّفق له أنْ يكون مَوْقِعهُ في الإطناب والإيجاز أليقَ بموقعه، وأحقَّ بالمقام والحال كان جامعًا للحُسْن، بارعًا في الفَضْلِ؛ وإنْ بلغ مع ذلك أنْ تكونَ موارده تنبيك عن مصادره، وأوّله يَكْشِفُ قِناع آخِره، كان قد جمع نهايَةَ الحُسْنِ، وبلغ أعْلَى مراتب التَّمَام.

و مثاله ما أنشدنا عبيد الله بن عبد الله بن طاهر لنفسه:

اشارَتْ بأطْرَافِ البَنَانِ المُخضَّبِ

وضَنَّتْ بِما تحت النقَابِ المكتَّبِ

وعَضَّتْ على تفاحة في يمينها

بِذِي أُشُرٍ [38] عَذْبِ المذاقة أشْنَبِ[39]

وَأوْمَتْ بها نِحْوِي فقُمتُ مُبَادِرًا

إليها فقالت: هل سمعت بأشْعَبِ

فهذا أجْوَدُ شعرٍ سَبْكًا وأشدّه التئاما وأكثره طلاوة وماء.

وينبغي أنْ تجعلَ كلامَك مشتبها أوله بآخره، ومطابقًا هاديه لعَجُزه، ولا تتخالف أطرافه[40]، ولا تتنافر أطرافه، وتكون الكلمةُ منه موضوعةً من أُخْتِها، ومقرونة بلفْقها، فإنَّ تنافرَ الألفاظِ من أكبرِ عيوب الكلام؛ ولا يكون ما بين ذلك حَشْوٌ يُسْتَغْنَى عنه ويتمّ الكلام دونه.

ومثالُ ذلك من الكلام المتلائِم الأجزاء، غيرِ المتنافر الأطْرَاف قول أخت عمرو ذي الكلب:

فأُقْسِمُ يا عَمْرُو لو نَبَّهاكَ

إذًا نبَّهَا مِنْكَ داءً عُضالا

إذًا نَبَّها لَيْثَ عِرِّيسَةٍ[41]

مُفِيتًا[42] مُفِيدًا نُفُوسًا ومَالَا

وخَرْقٍ تجاوزتَ مجهوُله

بِوَجْنَاء حَرْف تَشَكّى الكَلَالا[43]

فكنتَ النهارَ به شمسه

وكنتَ دُجى اللَّيْلِ فيه الهِلَالا

فجعلته الشمسَ بالنهار، والهلال بالليل. وقالت: مُفيتًا مفيدًا، ثم فسرت فقالت: نفوسًا ومالًا.

وقال الآخر:

وفي أربع منّي حَلَتْ منكِ أربعٌ

فما أنا دَارٍ أيُّها هَاجَ لي كَرْبي

أوَجْهُك في عيني أم الرِّيق في فَمِي

أمْ النطقَ في سمعي أمْ الحبُّ في قَلْبي

قال أبو أحمد: كنتُ أنا وجماعة من أحْدَاث بغداد ممَّن يَتَعاطَى الأدب نختلف إلى مُدْرك نتعلَّم منه علم الشِّعر، فقال لنا يومًا: إذا وضعتُمُ الكَلِمَة مع لفْقِها كنتم شَعَراء، ثم قال: أجِيزُوا هذا البيت:

ألَا إنَّما الدنيا متاعُ غرُورِ

فأجازَه كلٌّ واحدٍ من الجماعة بشيء فلم يَرْضَه، فقلت:

وَإنْ عَظُمَتْ في أنفُسٍ وصُدُورِ

فقال: هذا هو الجيِّدُ المختار.

وقال حماد عن يزيد بن جبلة: دفن مسلمة رجلًا من أهله، وقال:

نَرُوحُ ونَغْدُو كلَّ يَوْمٍ وليلة

ثم قال لبعضهم: أجِزْ، فقال: "فحتَّى متى هذا الرواح مع الغدو" فقال مسلمة: لم تَصْنَعْ شيئًا. فقال آخر: "فيالك مغدى مرة ورَواحا" فقال: لم تَصْنَعْ شيئًا. فقال لآخر: أجِزْ أنْتَ، فقال:

وعمّا قليلٍ لا نَرُوح ولا نغدُو

فقال: الآن تمَّ البيت.

وممّا لم يُوضَعْ فيه الشيء مع لِفْقِه من أشعار المتقدمين قول طرفة:

ولَسْتُ بِحَلّال التِّلاعِ مَخَافةً

ولكنْ متى يَسْتَرْفد القوم أرْفِدِ[44]

فالمصْرَاعُ الثاني غيرُ مشاكِل الصورة للمِصْرَاعِ الأول، وإنْ كان المعنى صحيحًا، لأنَّه أراد: ولستُ بحَلَّال التِّلاع مخافةَ السُّؤّال، ولكنِّي أنْزِلُ الأمكنةَ المرتفعةَ، لينتابوني فأرفدهم، وهذا وجهُ الكلام؛ فلم يعبِّرْ عنه تعبيرًا صحيحًا، ولكنّه خلطه وحذَفَ منه حذفًا كثيرًا فصار كالمتنافِر؛ وأدْوَاءُ الكلامِ كثيرة.

وقول السموأل:

فنحنُ كماءِ المزنِ ما في نِصَابِنا

كَهَامٌ ولا فينا يُعَدُّ بَخيلُ[45]

ليس في قوله: "ما في نصابنا كَهام". من قوله: "فنحن كماءِ المُزْنِ" في شيء؛ إذ ليس بين ماء المزن والنصاب والكهوم مقاربة، ولو قال: ونحن ليوثُ الحرب، أو أُولو الصرامة والنَّجدَة ما في نصابنا كَهامٌ لكان الكلام مستويًا. أو نحن كماء المزن صفاءَ أخلاق وبَذْلَ أكُفٍّ لكان جيدا.

وجعل بعضُ الأدباء من هذا الجنس قول امرئ القيس:

كأنِّيَ لمْ أركبْ جوادًا لِلَذَّةٍ

ولَمْ أَتَبَطَّنْ كاعبًا ذاتَ خَلْخَالِ

ولم أسْبأ الزِّقَّ الرَّوِيَّ ولمْ أقُلْ

لخيليَ كُرِّي كرَّةً بعدَ إجفالِ

قالوا: فلو وُضِعَ مِصْرَاعُ كل بيت من هذين البيتين في موضِع الآخَرِ لكان أحسْنَ وأدخل في استواء النَّسْجِ، فكان يُرْوى:

كأنِّي لم أركبْ جوادًا ولم أقُلْ

لخيليَ كُرِّي كرَّةً بعد إِجفالِ

ولم أسبأ الزِّقَّ الرَّوِيّ للذَّةٍ

ولم أتبطَّن كاعِبًا ذات خلخال

لأنَّ ركوبَ الجواد مع ذكر كرور الخّيل أجود، وذكر الخمر مع ذكر الكواعبِّ أحسن.

قال أبو أحمد: الذي جاء به امرؤ القيس هو الصحيح؛ وذلك أنَّ العرب تضَعُ الشيء مع خلافه فيقولون: الشدة والرخاء، والبؤس والنعيم، وما يجرى مع ذلك. وقالوا في قول ابن هرمة:

وإنِّي وتركي نَدَى الأكرمينَ

وقَدْحِي بكَفِّيَ زندًا شحاحَا

كتارِكَةٍ بَيْضَهَا بالعَرَاءِ

ومُلْبِسَةٍ بَيْضَ أُخْرَى جَنَاحَا

وقول الفرزدق:

وإنك إذْ تَهْجُو تميمًا وترْتشِي

سَرَابِيلَ قَيْسٍ أوْ سحُوقَ الْعَمائمِ

كمُهْريق مَاءٍ بالفَلَاة وغَرَّهُ[46]

سَرَابٌ أذَاعَتْهُ رِياحُ السَّمائِم[47]

كان ينبغي أنْ يكون بيت ابن هرمة مع بيت الفرزدق وبيت الفرزدق مع بيت ابن هرمة، فيقال:

وإني وتَرْكِي نَدَى الأكْرَمِينَ

وقَدْحِي بكَفّى زَنْدًا شحاحا

كمهريق ماء بالفَلَاة وغَرَّة

سرابٌ أَذاعته رياح السمائِم

ويقال:

وإنكَ إذ تَهْجُو تميمًا وتَرْتَشِي

سَرَابِيلَ قَيْسٍ أو سُحوقَ العمائم[48]

كتارِكةٍ بَيْضَها بالعَرَاءِ

ومُلْبِسَة بَيْضَ أخرى جَنَاحَا

حتى يصحَّ التشبيه للشاعرين جميعًا.

ومن المتنافر الصدور والأعجاز قول حبيب بن أوس:

محمدُ إنّ الحاسدين حُشودُ

وإنّ مَصَاب المُزْنِ حيثُ تريدُ[49]

ليس النصفُ الأول من النصف الثاني في شيء.

وقريبٌ من ذلك قول الطالبي:

قومٌ هدَى اللهُ العِبادَ بجدِّهِم

والمؤُثرونَ الضيفَ بالأزوادِ

ومن الشِّعر المتلائم الأجزاء المتشابه الصدور والأعجاز قولُ أبي النجم:

إنّ الأعادي لَنْ تَنَالَ قديمَنا

حتّى تُنَالَ كواكبُ الجَوْزاء

كَمْ في لُجَيمٍ منْ أغرّ كأنَّه

صُبْح يَشقَ طيَالسَ الظلمْاء

ومجرٍّب خضل[50] السنانِ إذا الْتَقَى

زَحْفٌ بخاطِرة الصدورِ ظماء

وكقول القطامى:

يَمْشِين رَهْوًا فلا الأعجازُ خَاذِلة

ولا الصُّدُورُ على الأعجازِ تَتَّكِلُ

فَهُنَّ معترِضَاتٌ والحَصَى رمضٌ[51]

والريح ساكنةٌ والظلُّ معتدلُ\

إلّا أنّ هذا لو كان في وصف نساء لكان أحسن، فهو كالشيء الموضوع في غير موضعه.

وينبغي أنْ تتجنّب إذا مدحتَ أو عاتبت المعاني التي يتطيّر منها ويستتشنع سماعها، مثل قول أبي نواس:

سلامٌ على الدُّنيا إذا ما فقدتم

بني برمكٍ من رائحين وغادِي

وإذا أردت أنْ تأتي بهذا المعنى فسبيلك أنْ تسلك سبيل أشجع السلمي في قوله:

لَقَدْ أمْسَى صلاح أبي عليّ

لأهل الأرض كُلِّهم صَلَاحا

إذا ما الموتُ أخطأه فلَسْنَا

نُبالِي الموتَ حيث غَدَا وَرَاحَا

فذكر إخطاءَ الموت إيّاه وتجاوزه إلى غيره؛ فجاد المعنى وحسن المستمع. وقد أحْسَنَ القائل:

ولا تحسَبَنَّ الحُزْنَ يَبْقَى فإنَّه

شِهابُ حَرِيقٍ وَاقِدٌ ثمّ خَامِدُ

ستَألفُ فقدَان الَّذي قَدْ فقدْتُه

كإلْفِكَ وجْدَان الّذي أنتَ واجِدُ

فجعل ما يتطيَّر منه من الفقدان لنفسه وما يستحبّ من الوجدان للممدوح؛ وقد أساء أبو الوليد أرطاة بن شهبة، حين أنشد عبد الملك:

رأيتُ الدهر يَأْكُلُ كلَّ حَيٍّ

كأكْلِ الأرضِ سَاقِطةَ الحديدِ

وما تُبْقِي المنِيّة حينَ تَغْدُو

على نَفْس ابن آدمَ مِنْ مَزِيدِ

وأعْلَمُ أنَّها ستكرّ حَتَّى

تُوفِي نَذْرَها بأبي الوليدِ

وكان عبدُ الملك يُكَنَّى أبا الوليد فتطيَّر منه، وما زال يرى كراهَةَ شِعْرِه في وجهه حتى مَات.

وإذا دَعَتِ الضرورةُ إلى سَوْق خبر واقتصاصِ كلام، فتحتاج إلى أنْ تتوخّى فيه الصدق، وتتحرَّى الحقَّ؛ فإنَّ الكلام حينئذ يملكك ويحوجك إلى اتِّبَاعِه والانقياد له.

وينبغي أنْ تأخذَ في طريقٍ تسهل عليك حكايتُه فيها، وتركب قافيةً تطيعك في استيفائك له، كما فعل النابغة في قوله:

وَاحْكُمْ كحُكْمِ فَتَاةَ الحيِّ إذْ نَظَرَتْ

إلى حمَامِ شِرَاعٍ واردِ الثّمدِ[52]

يحفّه جانِبًا نِيْقٍ[53] وتَتْبَعُه

مِثْل الزُّجَاجَةِ لم تكْحَل مِن الرَّمَدِ

قَالتْ ألَا لَيْتَمَا هذا الحَمامُ لنا

إلى حَمامَتِنَا أو نِصْفه فَقَدِ

فكمَّلَتْ مِائَةً فِيها حَمَامَتُها

وأسرَعَتْ حِسْبَةً في ذلك العَدَدِ

فحسَّبُوهُ فألْفَوْهُ كما حَسَبَتْ

تِسْعًا وتِسْعِينَ لم تنقُص ولم تَزِدِ

فهذا أجود ما يُذْكَرُ في هذا البابِ، وأصْعَبُ ما رامه شاعِرٌ منه؛ لأنّه عمد إلى حسابٍ دقيقٍ، فأورده مشروحا ملخّصا، وحكاه حكايةً صادقةً. ولمّا احتاج إلى أنْ يَذْكُرَ العددَ والزيادةَ والثَّمدَ بَنَى الكلامَ على قافيةٍ فاصلةِ الدال فسَهُل عليه طريقُه، واطّرد سبيله.

ولا ينبغي أنْ يكون لفظُك وحْشِيًا بَدَوِيًا، وكذلك لا يَصْلُح أنْ يكونَ مبتذلا سوقيًّا.

وقال خلف الأحمر: قال شيخٌ من أهل الكوفة: أما عجبتَ أن الشاعر قال: "أَنْبَتَ قيصوما وجثجاثا[54] فاحْتُمِل، وقلت أنا: أنبت إجَّاصا وتفاحا فلم يُحْتَمل.

والمختار من الكلام ما كان سهلًا جزلًا لا يشوبه شيء من كلام العامة وألفاظ الحشويّة، وما لم يخالف فيه وجه الاستعمال، ألا ترى إلى قول المتنبي:

أين البطاريقُ والحلفُ الّذي حلفُوا

بمفرقِ الملك والزَّعمُ الَّذي زعمُوا

هذا قبيحٌ جدًا، وإنّما سمع قول العامّة حلف برأسه، فأراد أنْ يقول مثله، فلم يستوِ له، فقال: بمفرق الملك.

وقبح هذا يدلّ على أنّ أمثاله غير جائز في جميع المواضع، وهذا النوع في شِعر المتنبي كبعد الاستعارة في شِعر أبي تمام.

ومن الألفاظ ما يُستعمل رُبَاعِيُّه وخماسيُّه دُونَ ثلاثيّه، ومنها ما هو بخلاف ذلك، فينبغي ألَّا تعدل عن جهة الاستعمال فيها، ولا يغرّك أنَّ أصولها مستعملة؛ فالخروجُ عن الطريقةِ المشهورةِ والنَّهج المسلوك رديءٌ على كلّ حال. ألا ترى أنّ الناسَ يستعملون "التعاطي" فيكونُ منهم مقبولًا، ولو استعملوا "العَطْو" وهو أصل هذه الكلمة وهو ثلاثيّ، والثلاثيُّ أكثرُ استعمالًا، لما كان مقبولا ولا حَسنًا مرضيا؛ فقِسْ على هذا.

ومن الألفاظِ ما إذا وقع نكرة قَبُح مَوْضِعُه وحَسُنَ إذا وقع معرفة، مثل قول بعضهم:

لَمّا التقيْنا صاحَ بينٌ بَيْنَنَا

يُدْنِي من القُرْب البعاد لِحاقَا

فقوله: "صاح بَيْنٌ بيننا" متكلَّفٌ جدًا. فلو قال: "البين" كان أقربَ؛ على أنَّ البيتَ كلَّه رديءٌ، ليس من وَصْفِ البلغاء.

وينبغي أنْ تُجتَنِب ارتكابُ الضرورات وإنْ جاءت فيها رُخْصَةٌ من أهْلِ العربية، فإنّها قبيحةٌ تَشِينُ الكلام وتَذْهَبُ بمائه؛ وإنّما استعملها القدماءُ في أشعارهم لعدم علمهم بقباحتها، ولأنَّ بعضهم كان صاحب بِداية، والبداية مَزَلَّة.

وينبغي أنْ ترتّب الألفاظ ترتيبًا صحيحًا؛ فتقدِّم منها ما كان يَحْسُنُ تقديمُه، وتُؤَخِّر منها ما يحِسُنُ تأخيرُه؛ ولا تُقدِّم منها ما يكونُ التأخيرُ به أحسن، ولا تؤخّر منها ما يكونُ التقديمُ به ألْيَق.

فممَّا أُفْسِد ترتيبُ ألفاظْه قول بعضهم:

يضَحكُ مِنْها كلُّ عُضْوٍ لها

من بَهْجِةِ العَيْشِ وحُسْنِ القَوَامْ

ترْفُلُ في الدَّارِ لَهَا وَفْرَة

كوَفْرَةِ المِلْط[55] الخَليع الغُلامْ

كان يَنْبَغِي أنْ يقول: كوفرة الغلام المِلْط الخليع، أو الغلام الخليع المِلْط؛ فأمّا تقديمُ الصفةِ على الموصوف فرَدِيءٌ في صَنْعَة الكلام جدًّا. وقوله أيضًا: "بهجة العيش وحسن القوام" متنافرٌ غيرُ مقبول.

وقول ابن طباطبا:

وعِجْلَةٌ تَشْدُو بألْحانها

وكانَتِ الكيِّسَةَ الخادِمَهْ

لو قال: "وكانت الخادمة الكيّسة" لكان أجود.

وينبغي ألَّا يَذْكُرَ في التشبيب اسمًا بغيضًا؛ فقد أنشد جريرٌ بعضَ ملوكِ بني أميّة:

وتَقُولُ بَوْزَعُ قَدْ دَبَبْتَ على العَصَا

هَلّا هَزِئتِ بغَيْرِنَا يا بَوْزَعُ

فقال له الوليد بن عبد الملك: أفسدتها ببَوْزَع.

وقد يقدح في الحسَن قُبْحُ اسمه، ويَزِيدُ في مهابةِ الرجل فخامةُ اسمه، ولهذا تكنّى البحتري بأبي عبادة، وكان يكنّى أبا الحسن؛ وشهد رجلٌ عند شُرَيح وكان الرجلُ يُكنّى أبا الكويفر، فردَّ شهادته، ولم يسأل عنه.

وسمع عمرُ بنُ عبد العزيز رحمه الله رجلًا يُكنّى أبا العمرين، فقال: لو كان عاقلًا لكفاه أحدهما.

وأتى ظالمُ بن سرَّاق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليستَعْمِله فردّه، وقال: أنت تظلِمُ وأبوك يَسْرِق؛ وظالم هذا جدّ المهلب بن أبي صفرة.

وهذه جملة كافية إذا تُدُبِّرَت، وبالله التوفيق.

ومن عيوب الكلام تكريرُ الكلمة الواحدة في كلامٍ قصير: مثل قول سعيد بن حميد: ومثَّل خادمُك بين ما يملك فلم يَجِدْ شيئًا يفي بحقِّك، ورأى أنّ تقريظك بما يبلُغُه اللسانُ ـ وإن كان مقصِّرا عن حقك ـ

أبلغَ في أداء ما يَجبُ لك.

فكررَ الحقَّ في المقدارِ اليسير من الكلام.

وينبغي أنْ يتجنَّب الكاتبُ جميع ما يُكْسِبُ الكلام تَعْميةً، فيرتّب ألفاظَه ترتيبًا صحيحًا، ويتجنَّبُ السقيمِ منه، وهو مثل ما كتب بعضهم: لفلان ـ وله بي حرمة ـ مَظْلَمة. وكان ينبغي أنْ يقول: لفلان وأنا أَرْعَى حرمته مظلمة. وما يجري هذا المجرى من الترتيب المختار البعيد من الإشكالِ.

أدوات الكتابة

ينبغي أنْ تعلم أنّ الكتابةَ الجيدةَ تحتاجُ إلى أدوات جَمّة، وآلاتٍ كثيرة؛ مِنْ معرفة العربيّة لتصحيحِ الألفاظِ، وإصابة المعاني، وإلى الحساب، وعلم المساحة، والمعرفة بالأزمنة والشهور والأهلة، وغير ذلك ممّا ليس ها هنا موضعُ ذِكْره وشَرْحِه، لأنّا إنما عملنا هذا الكتاب لمن استكمل هذه الآلات كلَّها، وبَقى عليه المعرفةُ بصَنْعَةِ الكلامِ، وهي أصْعَبُها وأشدُّها.

والشاهد ما روي عن المبرّد، أنّه قال: لا أحتاجُ إلى وصْف نفسي لعِلْم الناس بي؛ إنّه ليس أحدٌ من الخافِقَين يَخْتلج في نفسه مسألةٌ مشكلةٌ إلا لقيني بها، وأعدَّني لها، فأنا عالمٌ ومتعلّم وحافظٌ ودارسٌ، لا يخفى عليّ مشتبهٌ من الشِّعر والنَّحو والكلام المنثور والخُطَب والرسائل، ولربّما احتجْتُ إلى اعتذارٍ من فَلْتَةٍ أو التماسِ حاجة، فأجْعَلُ المعنى الذي أقْصِدُه نصْبَ عيني، ثم لا أجِدُ سبيلًا إلى التعبيرِ عنه بيَدٍ ولا لِسَانٍ. ولقد بلغني أنّ عبيد الله بن سليمان ذكرني بجميل، فحاولتُ أنْ أكتب إليه رُقْعَةً أشكره فيها، وأعَرّض ببعض أموري؛ فأتعبتُ نفسي يومًا في ذلك فلم أقْدِر على ما ارتضيته منها، وكنتُ أحاولُ الإفصَاح عمّا في ضميري، فينصرف لِسَاني إلى غيره. ولذلك قيل: زِيادةُ المنطق على الأدب خدعة، وزيادة الأدب على المنطق هُجْنَة[56].

فأوَّلُ ما يَنْبَغِي أنْ تستعمله في كتابتك مكاتبةُ كلِّ فريق منهم على مقدار طبقتهم وقوّتهم في المنطق، وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدّم.

والشاهد عليه أنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يَكْتَبَ إلى أهْلِ فارس كتب إليهم بما يمكن ترجمته، فكتب: مِنْ محمد رسول الله إلى كسرى إبرويز عظيمِ فارس:

سَلَامٌ على من اتَّبعَ الهدى، وآمن باللهِ ورسوله، فأدْعُوك بدَاعِيَةِ الله، فإنّي أنا رسولُ الله إلى الخَلْقِ كافَّةً ليُنْذِرَ مَنْ كان حيًّا، ويحقّ القولُ على الكافرين، فأسْلِمْ تَسْلَم، فإنْ أبيتَ فإثْمُ المجوس عليك.

فسهَّل عليه الصلاة والسلام الألفاظَ كما ترى غايةَ التسهيل حتى لا يَخْفَى منها شيء على مَنْ له أدنى معرفةٍ في العربية.

ولما أراد أنْ يكتبَ إلى قوم من العربِ فَخَّم اللفظ، لما عرف من فَضْلِ قوّتهم على فَهْمِه وعادتهم لسماع مثله.

فكتب لوائل بن حجر الحضرمي:

من محمد رسول الله إلى الأقْيَالِ العَبَاهِلَة[57] من أهل حَضْرَمَوْتَ بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، على التِّيعة الشاة، والتِّيمَةُ لِصَاحبها[58]، وفي السُّيوبِ[59] الخُمْس؛ لا خِلَاطَ ولا وِرَاطَ ولا شِنَاقَ ولا شِغَار[60]، ومن أجْبَى فقد أرْبَى، وكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَام[61].

واعلم أنَّ المعاني التي تُنْشأ الكُتَبُ فيها من الأمْرِ والنَّهْي سبيلُها أنْ تُؤَكَّدَ غاية التوكيد بجهةِ كيفية نَظْمَ الكلام، لا بجهةِ كَثْرَةِ اللّفظ؛ لأنّ حُكمَ ما ينفذ عن السلطان في كتبه شبيهٌ بحكم توقيعاتِه؛ من اختصار اللفظ وتأكيد المعنى. هذا إذا كان الأمرُ والنهيُ واقعَيْنِ في جملةٍ واحدةٍ لا يَقَعُ فِيها وجوهُ التمثيل للأعمال. فأمَّا إذا وَقَعا في ذلك الجنس فإنّ الحُكمَ فيهما يخالِفُ ما ذكرناه، وسبيلُ الكلام فيها أن يُحْمَل على الإطالةِ والتكرير دون الحَذْف والإيجاز؛ وذلك مثلُ ما يُكْتَبُ عن السلطانِ في أمرِ الأمْوَالِ وجِبَايتها واستِخْرَاجِها، فسبيلُ الكلام أنْ يقدّم فيها ذكر ما رآه السلطان في ذلك ودبّره، ثم يعقّب بذكر الأمر بامتثاله، ولا يقتصر على ذلك حتى يُؤَكّد ويكرّر لتأكّد الحُجة على المأمورِ به، ويحذّر مع ذلك من الإخلال والتقصير.

ومنها الإحماد والإذمام والثناءُ والتَّقريظ، والذمّ والاستصغار، والعدلُ والتوبيخ، وسبيلُ ذلك أنْ تُشْبِع الكلامَ فيه، ويمدّ القول حسبَ ما يَقْتَضِيه آثار المكتوب إليه في الإحسان والإساءة والاجتهاد والتقصير؛ ليرتاحَ بذلك قَلْبَ المُطِيع، ويَنْبَسط أملُه، ويرتاع قَلْبُ المسيء ويَأْخُذَ نفسه بالارْتِدَاعِ.

فأمَّا ما يكتُبه العُمال إلى الأُمَراءِ ومَنْ فوقهم، فإنّ سبيلَ ما كان واقعًا منها في إنهاءِ الأخبار، وتقريرِ صُور ما يَلُونَه من الأعمال، ويَجْرِي على أيْدِيهم من صُنُوف الأموال أنْ يُمَدَّ القولُ فيه حتّى يَبْلُغَ غاية الشفاءِ والإقناع؛ وتمامَ الشرح والاستقصاء؛ إذْ ليس للإيجاز والاقتصار عليه موضع، ويكون ذلك بالألفاظ السهلة القريبة المأْخَذِ، السريعَةِ إلى الفَهْم، دون ما يَقَعُ فيه استكراهٌ وتعقيد، وربَّما تَعْرِضُ الحاجةُ في إنهاء الخبر إلى استعمالِ الكناية والتَّوْرية عن الشيء دون الإفصاح؛ لمّا في التصريح من هَتْك السّتر، في حكايته عن عدوّ أطلَقَ لسانَه به، وفيه اطّراح مَهَابَة الرئيس؛ فيجب إجلالُه عنه؛ وفي الصدق ما يَسُوءُه سماعُه، ويقع بخلاف محبَّتِه؛ فيحتاجُ منشئُ الكلام إلى استعمالِ

لفْظٍ في العبارة لا تنخرق معه هيبة الرئيس، ولا يَعْتَرِضُ فيه ما يشتدّ عليه، ولا يكونُ أيضًا معها خيانةٌ في طيّ ما لا يجب سَتْره، ولا يكمل لهذا إلّا المبرِّز الكاملُ المقدّم.

وسبيلُ ما يُكْتَبُ به في بابِ الشكر ألّا يقع فيه إسهابٌ؛ فإنّ إسهابَ التابّع في الشكر، إذا رجع إلى خصوصية، نَوْعٌ من الإبرام[62] والتثقيل؛ ولا يَحْسنِ منه أنْ يستعملَ الإكثار من الثناء والدعاء أيضًا؛ فإنّ ذلك فِعْلُ الأبَاعد الذين لم تتقدَّم لهم وسائلُ من الخدمة مقدّمات في الحرمة، أو تكون صناعتهم التكسّب بتقريظِ الملوك وإطراء السلاطين، فلا يقبح إكثار الثناء من هؤلاء.

وليس يَحْسُن منه أيضًا تكريرُ الدعاء في صَدْر الكتاب والرِّقاع عندما يجريه من ذِكْر الرئيس؛ فإنّ ذلك مَشْغلة وكُلفة، والحُكمُ فيما يستعمله من ذلك في الكتب مشبّه بحُكم ما يستعمل منه شفاهًا. ويقبح من خادم السلطان أنْ يشغل سَمْعَه في مخاطبته إيّاه بكثرةِ الدعاء له وتكثيره عند استئناف كلِّ لَفْظَةٍ.

وسبيلُ ما يَكْتَبُ به التابعُ إلى المتبوع في معنى الاسْتِعْطَاف ومسألة النُّظَرَاء ألّا يكثر من شكايةِ الحال ورِقَّتِها، واستيلاءِ الخَصَاصة[63] عليه فيها؛ فإنَّ ذلك يَجْمَعُ إلى الإبرام والإضْجَار شكايةَ الرئيس لِسوءِ حاله وقِلّة ظهور نِعْمته عليه. وهذا عند الرؤساء مكروهٌ جدًا، بل يجب أنْ يجعل الشكايةَ ممزوجةً بالشكر والاعترافِ بشمول النعمة وتوفير العائِدَة[64].

وسبيلُ ما يُكْتَبُ به في الاعتذار من شيءٍ أنْ يتجنَّب فيه الإطْنَابِ والإسهاب إلى إيراد النكت التي يتوهم أنّها مُقْنِعة في إزالة المَوْجِدة[65]، ولا يُمعن في تبرئة ساحَتِه في الإساءة والتقصير؛ فإنّ ذلك ممّا يَكره الرؤساء؛ والذي جرت به عادتُهم الاعتراف من خدمهم وخَوَلهم بالتقصير والتفريط في أداء حقوقهم وتأدِية فروضهم؛ ليكون لهم فيما يعقبون ذلك من العَفْوِ والتجاوز موضعُ مِنّة مستأنفة تَسْتَدعي شكرًا، وعارفة مستجدّة تقتضي نشرًا؛ فأمّا إذا بالغ المتنصِّل في براءةِ ساحَتِه من كلّ ما قذف به فلا موضعَ للإحسان إليه في إعفائه عن ترك السخط، بل ذلك أمْرٌ واجبٌ له؛ وفي منع الرئيس حِصَّته منه ظُلْمٌ وإساءةٌ.

وكان الناسُ فيما مضى يستعملونَ في أوّل فصولِ الرسائل "أمّا بعد". وقد تركها اليوم جماعةٌ من الكُتَّاب، فلا يكادُون يستعملونها في شيء من كتبهم، وأظنّهم ألمُّوا بقول ابن القرية وسأله الحجَّاجُ عمّا يُنْكِرُه من خطابته، فقال: إنّك تكثّر الردّ، وتُشِير باليَد، وتستعين بأمَّا بَعْد. فتحاموه لهذه الجهة مع أنّهم رَوَوا في التفسير أنّ قول الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: 20] هو قوله أمّا بعد؛ فإنْ استعمَلْتَه اتباعًا للأسلاف، ورغبةً فيما جاء فيه من التأويل فهو حَسَنٌ؛ وإنْ تركتَه توخِّيًا لمطابقة أهْلِ عصرك، وكَراهةً للخروج عمَّا أصَّلوه لم يكن ضائرًا.

وينبغي أنْ يكون الدعاءُ على حَسَبِ ما توجِبُه الحالُ بينك وبَيْنَ مَن تكتُبُ إليه وعلى القَدْر المكتوب فيه.

وقد كتب بعضُهم إلى حِبَّةٍ له: عصَمَنا اللهُ وإيّاك مما يكره. فكتبت إليه: يا غليظَ الطَّبْع، لو استُجيبت لكَ دَعْوَتُك لم نلتق أبدًا.

واعلم أنَّ الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخُطب هو أنْ تجعلها مُزْدوجة فقط، ولا يلزمُك فيها السَّجْع؛ فإنْ جعلتها مسجوعة كان أحسن، ما لم يكن في سَجْعِك استكراه وتنافرُ وتعقيدٌ، وكثر ما يقع ذلك في السَّجْع، وقَلّ ما يَسْلَم ـ إذا طَالَ ـ من استكراه وتَنَافُر.

وينبغي أنْ تتجنَّب إعادةَ حروف الصلات والرباطات في مَوْضع واحد إذا كتبت مثل قول القائل: منه له عليه. أو عليه فيه. أو به له منه. وأخفها له عليه، فسبيلُه أنْ تُدَاوِيه حتى تزيلَه بأنْ تَفْصِل ما بين الحرفين، مثل أنْ تقول: أقمت به شهيدًا عليه. ولا أعرفُ أحدًا كان يتتبَّع العيوبَ فيأتيها غيرَ مكْتَرِث إلّا المتنبي، فإنّه ضَمّن شعرَه جميعَ عيوبِ الكلام ما أعدمه شيئًا منها حتى تخطَّى إلى هذا النوع فقال:

ويسعدني في غَمْرَةٍ بعد غَمْرةٍ

سَبوحٌ له منها عَلَيْهَا شواهدُ[66]

فأتى من الاستكراه بما لا يُطَارُ غُرابُه.

فتدبَّرْ ما قُلْنَاه، وارْتَسِمْه تَظْفَرْ ببغيتك منه إنْ شاء الله.

الإيجاز

قال أصحابُ الإيجاز: الإيجازُ قصور البلاغةِ على الحقيقة، وما تجاوَزَ مقدارَ الحاجةِ فهو فَضْلٌ داخلٌ في باب الهذَر والخَطَل[67]، وهما من أعظمِ أدْوَاءِ الكلام، وفيهما دلالةٌ على بلادةِ صاحب الصناعة.

وفي تفضيل الإيجاز يقول جعفر بن يحيى لكتَّابه: إنْ قدَرْتَم أنْ تجعلوا كُتَبكم توقيعاتٍ فافعلوا.

وقال بعضُهم: الزيادة في الحدِّ نُقْصان. وقال محمد الأمين: عليكم بالإيجاز فإنّ له إفهامًا، وللإطلالة استبهامًا. وقال شبيب بن شبة: القليل الكافي خيرٌ من كثيرٌ غير شافٍ. وقال آخر: إذا طال الكلامُ عرضت له أسبابُ التكلّف، ولا خير في شيء يَأْتِي به التكلّف. وقد قيل لبعضهم: ما البلاغةُ؟ فقال: الإيجاز. قيل: وما الإيجاز؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد.

وسمع رسول الله عليه الصلاة والسلام رجلًا يقول لرجل: كفاك الله ما أهمّك. فقال: هذه البلاغة. وسمع آخر يقول: عصمك الله من المكاره. فقال: هذه البلاغة. وقوله عليه الصلاة والسلام: أوتيت جوامع الكلم.

وقيل لبعضهم: لمَ لا تطيل الشِّعر؟ فقال: حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق. وقيل ذلك لآخر، فقال: لستُ أبيعه مذارَعَةً.

وقيل للفرزدق: ما صيّرك إلى القصائد القصار بعد الطوال؟ فقال: لأنّي رأيتُها في الصدور أوقع، وفي المحافل أَجْوَل[68].

وقالت بنت الحطيئة لأبيها: ما بال قصارك أكثر من طوالك؟ فقال: لأنّها في الآذان أولج، وبالأفواه أعلق. وقال أبو سفيان لابن الزبعري: قصرت في شِعْرِك؟ فقال: حسبك من الشِّعر غرَّةٌ لائحة، وسمةٌ واضحة.

وقيل لبعض المحدَثين: ما لَك لا تزيدُ على أربعة واثنين؟ قال: هُنَّ بالقلوب أَوْقَع، وإلى الحفظ أسرع، وبالألسن أعلق، وللمعاني أَجْمَع، وصاحبُها أَبْلَغ وأوْجَز.

وقيل لابن حازم: ألا تطيلُ القصائد؟ فقال:

أبَى لِي أنْ أطيلَ الشِّعرَ قصدِي

إلى المعنى وعِلمِي بالصَّوابِ

وإيجازي بمختصرٍ قريبٍ

حذفتُ به الفضولَ من الجوابِ

فأبْعَثُهنَّ أرْبَعةً وسِتًّا

مثقَّفةً بألفاظٍ عِذَابِ

خَوَالدَ ما حَدَا ليلٌ نَهارًا

وما حَسُنَ الصّبا بأخي الشَّبابِ

وهنّ إذا وسمتُ بِهنّ قَوْمًا

كأطواقِ الحمائم في الرِّقَابِ

وكنَّ إذا أقمتُ مسافراتٍ

تهادَاها الرُّواة مع الرِّكابِ

وقال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: ما رأيتُ بليغًا قطّ إلّا وله في القول إيجاز، وفي المعاني إطالة.

وقيل لإياس بن معاوية: ما فيك عَيْبٌ غير أنَّك كثيرُ الكلام. قال: أفتسمعون صَوابًا أم خطأ؟ قالوا: بل صَوَابًا. قال: فالزيادةُ من الخير خيرٌ. وليس كما قال؛ لأنّ للكلام غاية، ولنشاط السامعين نِهاية؛ وما فَضُل عن مِقْدَار الاحتمال دعا إلى الاستثقال، وصار سببًا للمَلَال؛ فذلك هو الهذَر والإسهاب والخَطَل؛ وهو معيب عند كلّ لبيب.

وقال بعضهم: البلاغةُ بالإيجاز أنجعُ من البيان بالإطناب. وقال: المِكْثَار كحَاطِب الليل.

والإيجاز: القِصَر والحَذْف.

فالقِصَرُ تقليلُ الألفاظ، وتكثير المعانيُ؛ وهو قول الله ـ عزَّ وجلَّ-: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) [البقرة: 179].

ويتبيّن فضل هذا الكلامِ إذا قرنته بما جاء عن العرب في معناه، وهو قولهم: "القتل أنفى للقتل. فصار لفظُ القرآن فوقَ هذا القول لزيادته عليه في الفائدة، وهو إبَانةُ العدل لذِكر القِصَاص وإظْهَارَ الغرضِ المرغوبِ عنه فيه لذكرِ الحياةِ، واستدعاءِ الرَّغبة والرَّهبة لحكم الله به ولإيجازِه في العبارة. فإنّ الذي هو نظير قولهم: "القَتْلُ أنْفَى للقَتلِ" إنّما هو: "القصاصُ حيَاة" وهذا أقلُّ حروفًا من ذاك، ولبُعْدِه من الكلفة بالتكرير، وهو قولهم: "القَتْلُ أنَفَى للَقْتل". ولفظُ القرآن برِيءٌ من ذلك، وبحُسْنِ التأليف وشدةِ التلاؤم المُدْرَكِ بالحسّ؛ لأنَّ الخروجَ من الفاء إلى اللام أعْدَلُ من الخروج من اللام إلى الهمزة.

ومن القِصَر أيضًا قوله تعالى: إ(ذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) [المؤمنون: 91] لا يُوازي هذا الكلامَ في الاختصار شيء. وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ) [المؤمنون: 23]. وقوله عزّ اسمه: (وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) [فاطر: 43] وإنّما كان سوءُ عاقبة المَكر والبَغْي راجعًا عليهم وحائقًا بهم، فجعله للبَغْي والمكر اللّذَيْن هما من فعلهم إيجازًا واختصارًا. وقوله سبحانه: (أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا) [الزخرف: 5]. وقوله تعالى: (وَلا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ) [البقرة: 224]. وقوله تعالى: (فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا) [يوسف: 80]

تحيّر في فصَاحَتِه جميعُ البُلَغَاءِ، ولا يجوزُ أنْ يوجدَ مثله في كلام البشر. وقوله تعالى: (وَلَقَدْ رَاوَدتْهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) [يوسف: 32]. وقوله تعالى: (يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي) [هود: 44]. الآيةُ تتضمّن مع الإيجاز والفصاحة دلائلَ القدرة. وقوله تعالى: (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) [الأعراف: 54] كلمتان اسْتَوْعَبَتَا جميعَ الأشياء على غاية الاستقصاء. وروي أنّ ابن عمر قرأها، فقال: مَنْ بقي له شيءٌ فليطلبه. وقوله تعالى: (وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ) [الروم: 22]. اختلاف اللغات والمناظر والهيئات. وقوله تعالى في صفة خَمْرِ أهلِ الجنَّةِ: (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ) [الواقعة: 19] انتظم قوله سبحانه (ولا ينزفون) عدم العَقْل وذهاب المال ونَفَاد الشراب. وقوله تعالى: (أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ) [الأنعام: 82] دخل تحت الأمن جميعُ المحبوبات؛ لأنّه نفى به أنْ يخافوا شيئًا أصلًا من الفَقْرِ والموتِ وزوال النِّعْمَة والجَوْرِ، وغير ذلك من أصناف المكاره؛ فلا ترى كلمةً أجمع من هذه.

وقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: (وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ) [البقرة: 164] جمع أنواع التّجارات، وصنوفَ المَرَافِق التي لا يَبْلُغُها العَدُّ والإحْصَاءُ. ومثله قوله سبحانه: (لِيَشْهَدُوْا مَنَافِعَ لَهُمْ) [الحج: 128] جمع منافع الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) [الحجر: 94] ثلاث كلمات تَشْتَمِلُ على أمر الرسالة وشرائعها وأحكامِها على الاستقصاء؛ لما في قوله "فاصْدَعْ" من الدلالة على التأثير، كتأثير الصدع.

وقوله تعالى: (وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ) [القمر: 3] ثلاث كلمات اشتملت على عواقبِ الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) [الأنعام: 13] وإنّما ذكر الساكن ولم يذكر المتحرّك؛ لأنَّ سكونَ الأجْسَامِ الثقيلة مثل الأرض والسماء في الهواء من غيرِ علاقة ودعامة أعْجَب وأدلّ على قدرة مسكنها.

وقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) [الأعراف:199 فجمعَ جميعَ مكارم الأخلاقِ بأسْرِها؛ لأنَّ في العفو صلةَ القاطعين، والصفحَ عن الظالمين، وإعطاءَ المانعين، وفي الأمْرِ بالعرف تقوى اللهِ وصلة الرَّحم، وصون اللسان عن الكذب، وغضّ الطَّرْفِ عن الحرمات، والتبرّؤ من كلّ قبيح؛ لأنَّه لا يَجوز أنْ يَأمر بالمعروف وهو يلابِسُ شيئًا من المنكر؛ وفي الإعْرَاضِ عن الجاهلين الصَّبر والحِلْم وتنزيه النفس عن مقابلة السفيه بما يوتِغ[69] الدين ويُسْقِط القدرة.

وقوله تعالى: (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا) [النازعات: 31]؛ فدلّ بشيئين على جميع ما أخْرَجَه من الأرْضِ قوتًا ومَتَاعًا للناس، من العُشْبِ والشجر والحطب واللّباس والنَّار والملح والماء؛ لأنّ النار من العيدان والملح من الماء، والشاهدُ على أنّه أراد ذلك كلَّه قوله تعالى: (مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) [النازعات: 33، عبس: 32].

وقوله تعالى: (يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ) [الرعد: 4]، فانظر هل يمكنُ أحدًا من أصناف المتكلمين إيرادُ هذه المعاني في مثل هذا القَدْر من الألفاظ.

وقوله ـ عزّ وجل-: (وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) [الأنعام: 59] جَمَع الأشياء كلها حتى لا يشذّ منها شيءٌ على وَجْه.

وقوله تعالى: (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ) [الزخرف: 71] جمع فيه من نِعَم الجنة ما لا تحصُرُهُ الأفهام، ولا تبلغُه الأوهام.

وقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: "إياكُم وخَضْرَاء الدِّمن"[70]. وقوله عليه الصلاة والسلام: "حبّك الشيء يُعمِي ويصم". وقوله عليه الصلاة والسلام: "إنّ من البيان لَسِحرًا". وقوله عليه الصلاة والسلام: "الصحة والفراغ نعمتانِ". وقوله عليه الصلاة والسلام: "نيّة المؤمن خيرٌ من عمله". وقوله عليه الصلاة والسلام: "تَرْكُ الشرِّ صَدَقة". وقوله عليه الصلاة والسلام: "الحمى في أصول النخل".

فمعاني هذا الكلام أكثرُ من ألفاظه، وإذا أردتَ أنْ تعرف صِحَّة ذلك فحلّها وابْنِها بناء آخر؛ فإنّك تجدها تجئ في أضعاف هذه الألفاظ.

قوله عليه الصلاة والسلام: "إذا أعطاك اللهُ خيرًا فلْيَبِنْ عليك، وابْدَأْ بمَن تَعُول وارْتَضِخْ[71] من الفَضْلِ، ولا تَلُمْ على الكَفَاف، ولا تعجز عن نَفْسك".

وقوله عليه الصلاة والسلام: "فليبن عليك" أي فليظهر أَثَرُه عليك بالصدقة والمعروف، ودلّ على ذلك بقوله: "وابْدَأ بمَنْ تعول، وارتضخ من الفضل"، أي اكسر من مالك وأعْطِ، واسم الشيء الرضيخة. "ولا تعجز عن نفسك" أي لا تجمع لغيرِك وتَبْخَلْ عن نفسك، فلا تقدّم خيرًا.

وقول أعرابي: اللهم هَبْ لي حقّك، وأرْضِ عنّي خَلْقك.

وقال آخر: أولئك قومٌ جعلوا أموالهم مناديل لأعراضهم، فالخيرُ بهم زائد، والمعروف لهم شاهد، أي يقون أعراضهم بأموالهم.

وقيل لأعرابي يسوق مالًا كثيرًا: لمَن هذا المال؟ فقال: لله في يدي.

وقال أعرابي لرجلٍ يمدَحُه: إنّه ليُعْطِي عطاء مَنْ يَعْلَمُ أنَّ الله مادته.

وقول آخر: أمّا بعدُ فَعِظِ الناسَ بفعلك، ولا تعِظْهُم بقَوْلِك، واسْتَحْيِ من الله بقَدْرِ قُرْبه منك، وخَفْهُ بقَدْرِ قُدْرَته عليك.

وقال آخر: إنْ شككت فاسألْ قَلْبك عن قَلْبي.

وممّا يدخل في هذا الباب المساواة، وهو أنْ تكونَ المعانِي بقَدْرِ الألفاظ والألفاظ بقَدْرِ المعاني لا يَزيدُ بعضُها على بعض، وهو المذهب المتوسّط بين الإيجاز والإطنَاب؛ وإليه أشار القائلَ بقوله: كأنّ

ألفاظه قوالبُ لمعانيه؛ أيْ لا يزيد بعضُها على بعض.

فما في القرآن من ذلك قوله ـ عزَّ وجلَّ-: (حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ)[72] [الرحمن: 72]. وقوله تعالى: (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)[73] [القلم: 9] ومثله كثير.

ومن كلام النبي عليه الصلاة والسلام: "لا تزالُ أمتي بخيرٍ ما لم ترَ الأمانة مَغْنمًا والزكاة مَغْرمًا". وقوله عليه الصلاة والسلام: "إياكَ والمشارّة فإنّها تميت الغُرَّة وتُحْيِي العُرّة"[74].

ومن ألفاظ هذه الفصول ما كانت مَعَانيه أكْثَر من ألفاظه، وإنّما يكره تميزيها كراهة الإطالة.

ومِنْ نثر الكُتّاب قولُ بعضهم: سألت عن خبري وأنا في عافيةٍ لا عيبَ فيها إلّا فقدك، ونعمةٍ لا مَزيدَ فيها إلّا بك.

وقوله: علمتني نَبْوَتك سَلْوتك، وأَسْلَمني يأسي منك إلى الصَّبْرِ عنك. وقوله: فحفِظ اللهُ النعمةَ عليك وفيك، وتَوَلّى إصْلَاحَك والإصلاحَ لك، وأجْزَلَ من الخير حَظّك والحظّ منك، ومنَّ عليك وعلينا بك.

وقال آخر: يئست من صلاحك بي، وأخافُ فسادي بك، وقد أطنب في ذمّ الحمار من شَبَّهكَ به.

ومن المنظوم قولُ طرفة:

ستُبْدِي لك الأيامُ ما كنت جَاهِلًا

ويَأْتيك بالأخْبَار مَنْ لم تُزَوِّد

وقول الآخر:

تُهْدَى الأمورُ بأهلِ الرّأي ما صلحتْ

فإنْ تَأَبّتْ فبالأشْرَارِ تَنْقَادُ

وقول الآخر:

فأمّا الّذي يحصيهم فَمُكَثِّر

وأمّا الَّذِي يُطْرِيهم فمُقَلِّل

وقول الآخر:

أهابُكِ إجلالًا وما بكِ قُدْرَةٌ

عليَّ ولَكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُها

وما هجرتْكِ النّفْسُ أنّك عِنْدها

قليلٌ، ولكن قلَّ مِنْكِ نصيبها

وقول الآخر:

أصدّ بأيْدِي العيس عَنْ قَصْد أهْلِهَا

وقَلْبِي إلَيْها بالمودَّةِ قاصِدُ

وقول الآخر:

يقولُ أُنَاسٌ لا يَضِيركَ فَقْدُها

بلَى كلّ ما شَفَّ النفوسَ يَضِيرها[75]

وقال الآخر:

يَطُولُ اليَوْمُ لا ألقاكَ فيه

وحَوْلٌ نَلْتَقِي فيه قَصِير

وقالوا: لا يَضِيرُكَ نَأْيُ شَهْرٍ

فقلتُ لصاحبيّ: فمن يَضِير

قوله: "الصاحبي" يكاد يكون فَضْلًا.

وأمّا الحذفُ فعلى وُجُوهٍ، منها أنْ تحذَفَ المضافُ وتقيم المضاف إليه مقامه وتجعل الفعل له، كقوله الله تعالى: (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ) [يوسف: 82]، أيْ أهلها.

وقوله تعالى: (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ) [البقرة: 93]، أي حُبّه.

وقوله - عزَّ وجلَّ-: (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ) [البقرة: 197]، أيْ وقت الحج.

وقوله تعالى: (بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) [سبأ: 33]، أيْ مكركم فيهما.

وقال الشاعر:

لَهُمْ مَجْلِسٌ صُهْبُ السِّبَالِ أذِلَّةٌ

سَواسِيَةٌ أحرْارُها وعَبِيدُها

يعنى أهل المجلس.

ومنها أنْ يوقع الفِعل على شيئين وهو لأحدهما ويضمر للآخر فعله، وهو قوله تعالى: (فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ) [يونس: 71] معناه: وادْعُوا شركاءكم.

وقال الشاعر:

تراه كأنَّ اللهَ يَجْدَعُ أنْفَه

وعَيْنَيْه إنْ مَوْلَاهُ ثَابَ له وَفْرُ

أي ويفقأ عينيه.

وقول الآخر:

إذا ما الغْانِيَاتُ بَرَزْنَ يَوْمًا

وزَجّجْنَ الحَوَاجِبَ والعُيُونَا

العيون لا تزجّج، وإنما أراد وكَحَّلْنَ العيون.

ومنها أنْ يأتي الكلامُ على أنّ له جوابًا فيُحذفُ الجوابُ اختصارًا لعِلم المخاطب، كقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا) [الرعد: 31]، أراد لكان هذا القرآن، فحذف.

وقوله تعالى: (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) [النور: 20]، أراد لعذّبكم.

وقال الشاعر:

فأُقسِمُ لوْ شيءٌ أتانا رسولُه

سِواكَ ولكن لم نجد لك مَدْفَعَا

أيْ: لرددناه.

وقوله تعالى: (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ) [آل عمران: 113]، فذكر أُمَّةً واحدة ولم يذكر بعدها أخرى، وسواء يأتِي من اثْنَيْنِ فما زَادَ.

وكذلك قوله تعالى: (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا) [الزمر: 9]، ولم يذكر خلافه، لأنَّ في قوله تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) [الزمر: 9]، دليلًا على ما أراد.

وقال الشاعر:

أراد فما أدري أهَمٌّ هَمَمْتُه

وذو الهمِّ قِدْمًا خاشعٌ مُتَضائلُ[76]

ولم يأت بالآخر.

وربّما حذفوا الكلمة والكلمتين، كقوله تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم) [آل عمران: 106]. وقوله تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) [الإسراء: 23]، أيْ ووصّى بالوالدين إحسانا.

وقال النمر:

فإنَّ المنيَّة مَنْ يَخْشَها

فَسْوَفَ تصادِفَه أيْنَما

أيْ أيْنَما ذهب.

وقال ذو الرمة:

لعِرفَانِها والعَهْدُ ناءٍ وقَدْ بَدَا

لِذِي نُهْيَةٍ أنْ لا إلى أُمِّ سَالمِ

المعنى أنْ لا سبيل إليها ولا إلى لقائها، فاكتفى بالإشارة إلى المعنى؛ لأنّه قد عرف ما أراد.

وقوله تعالى: (فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ) [إبراهيم: 18]، أيْ في يوم ذي عاصفٍ. وقوله تعالى: (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) [العنكبوت: 22]، أيْ ولا من في السماء بمعجز.

ومنها القسم بلا جَوَاب، كقوله تعالى: (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، بَلْ عَجِبُوا) [ق: 1 - 2]، معناه والله أعلم: ق والقرآن المجيد لتبعثنّ، والشاهدُ ما جاء بعده من ذِكْرِ البعث في قوله: (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا) [الواقعة: 47].

ومن الحذف قوله تعالى: (إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ) [الرعد: 14]، أي كباسط كفَّيْهِ إلى الماء ليقبض عليه.

وقال الشاعر:

إنِّي وإيّاكم وَشَوْقًا إليكم

كقابض ماءٍ لَمْ تَسِقْهُ أنَامِلُه[77]

ومن الحذفِ إسقاط "لا" من الكلامِ في قولِه تعالى: (يُبَيِّنُ الله لكَمْ أنْ تَضِلوا) [النساء: 176]، أيْ "لِإِنْ لَا تَضِلُّوا". وقوله تعالى: (أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ) [الحجرات: 2]، أي لا تحبط أعمالكم.

وقال امرؤ القيس:

فقلت يَمينَ الله أبرَحُ قَاعِدًا

ولو قَطَعُوا رَأْسي لديك وأَوْصَالِي

أيْ لا أبرح قاعدا.

وقال آخر:

فلا وأبي دُهْمَانَ زالتْ عزيزةً

على قَوْمِها ما فتَّل الزَّنْد قادِحُ

ومن الحذف أنْ تُضْمِر غَيْرَ مذكور، كقوله تعالى: (حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ) [ص: 32] يعني الشمس بدأت في المغيب. وقوله تعالى: (مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ) [فاطر: 45] يعني على ظهرِ الأرض. وقوله تعالى: (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا) [العاديات: 4]، أيْ بالوادي. وقوله تعالى: (وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا) [الشمس: 3] يعني الدنيا أو الأرض. (وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا) [الشمس: 15]، يعني عُقْبَى هذه الفعلة.

وضربٌ منه آخر قوله تعالى: (اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا) [الأعراف: 155]، أيْ من قومه.

وقال العجاج:

تحتَ الذي اخْتَارَ لَهُ الله الشَّجَرْ

أيْ من الشجر.

وضربٌ منه ما قال تعالى في أول سورة الرحمن: (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) [الرحمن: 13،....]" وذكر قبل ذلك الإنسان، ولم يذكر الجانّ ثم ذكره.

ومثله قول المثقّب:

فما أدْرِي إذا يَمَّمْتُ أرضًا

أريد الخير أيُّهما يَلِيني

أألخيرُ الذي أنا أبتغِيه

أمْ الشرّ الذي هو يَبْتَغِيني

فكنّى عن الشرّ قبل ذِكْره، ثم ذَكَره.

ومن الحذف قولُه تعالى: (يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ) [النساء: 44]، أراد يشترون الضلالة بالهدى. وقوله تعالى: (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ) [الصافات: 78...]، أيْ أبقينا له ذِكْرًا حسنًا في الباقِين فحذف الذِّكْر. ومن ذلك قوله تعالى: (فَبَعَثَ الله غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ) [المائدة: 31]، أيْ يَبْحَثُ التّرَاب على غُرَاب آخر لِيُوَارِيَه، فيرى هو كيف يواري سوأة أخيه. وقوله تعالى: (فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ) [المائدة: 52]، أيْ في مرضاتهم.

ومن الحذف قولُ صعصعة وقد سُئِل عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: لم يقل فيه مستزيد: لو أنّه، ولا مستقصر: إنّه، جَمَعَ الحِلمَ، والعلمَ، والسِّلم، والقرابة القريبة، والهِجْرة القديمة، والبصر بالأحكام، والبلاء العظيم في الإسلام.

وقال القيسي: مازلت أمْتَطِي النهارَ إليك، وأستدل بفضلك عليك، حتى إذا جنَّني الليل، فقبض البصر، ومحا الأثر، أقام بَدَنِي، وسافر أملي، والاجتهادُ عاذرٌ؛ وإذا بلغتك فقط.

فقوله: "فقط" من أحْسَنِ حذف وأجْوَدِ إشارة.

أتى عبد الله بن يزيد بن معاوية أخاه خالدًا، فقال: يا أخي؛ لقد هممت اليوم أنْ أفْتِكَ بالوليد بن عبد الملك. فقال خالد: بئس والله ما همَمْتَ به في ابن أمير المؤمنين، ووليّ عهد المسلمين فقال: إنّ خيلي مرَّت به فعبث بها وأصغرني فيها. فقال: أنا أكفيك؛ فدخل على عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين! إنّ الوليد ابن أمير المؤمنين مرّتْ به خيل ابن عمّه عبد الله بن يزيد؛ فعبث بها وأصغره[78] فيها. وعبد الملك مُطْرِقٌ، ثمّ رفع رأسه وقال: (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً) [النمل: الآية 34]. فقال خالد: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) [الإسراء: 16]. فقال عبد الملك: أفي عبد الله تكلِّمُنِي، لقد دخل عليَّ فما أقام لسانَه لحنًا؟ فقال خالد: أفَعَلى الوليد تُعَوِّل؟ فقال عبد الملك: إنْ كان الوليدُ يَلْحَن فإنّ أخاه سليمانُ. فقال خالد: إنْ كان عبدُ الله يلحن فإنّ أخاه خالد. فقال له الوليدُ: اسكت، فوالله ما تُعَدّ في العِيرِ ولا في النّفير[79]. فقال اسمع يا أمير المؤمنين، ثم أقبل عليه فقال: وَيْحَك فمن للعِيرِ والنَّفِير غَيْرِي؟ جدّي

أبو سفيان صاحب العِير، وجَدِّي عتبة بن ربيعة صاحب النَّفِير[80]؛ ولكن لو قلت غُنَيْمَات وحُبَيْلَات الطَّائف ورَحِمَ الله عثمان قُلْنَا صَدَقْتَ.

وذلك أنّ النبي عليه الصلاة والسلام طرد الحكم بن أبي العاص[81] فصار إلى الطائف يَرْعَى غنيمه ويَأْوِى إلى حُبْلَة ـ وهي الكَرْمة ـ ورحم الله عثمان، أي لردِّه إيّاه[82]. فهذا حذفٌ بديع.

وكذلك قول عبد الملك: إنْ كان الوليدُ يلحن فإنَّ أخاه سليمان. وقول خالد: إنْ كان عبد الله يلحن فإنّ أخاه خالد، حذفٌ حَسَنٌ أيضًا. ومثل هذا كثيرٌ في كلامهم، ولا وَجْهَ لاستِيعَابِه.

ومن الحذف الرديء قول عروة بن الورد:

عَجِبْتُ لهُمْ إذْ يَقْتُلونَ نَفوسَهم

ومَقْتَلُهم عِنْدَ الوغَى كانَ أعْذَرَا

يعني إذْ يقتلون نفوسَهم في السلم.

ومِثْلُه من نَثْرِ الكُتّاب ما كتَبَ بعضُهم: فإنّ المعروف إذا زَجَا[83] كان أفضل منه إذا توافرَ وأبطأ. وتمام المعنى أنْ يقولَ: "إذا قَلَّ وَزَجا". فترك ما به يتمُّ المعنى، وهو ذِكْرُ القِلّة.

وكتب بعضهم: فما زَالَ حتى أتلف مَالَه، وأهلك رِجَالَه؛ وقد كان ذلك في الجِهاد والإبْلاء أحقّ بأهل الحزم وأوْلَى. والوجهُ أنْ يقولَ: فإنّ إهْلَاكَ المالِ والرجال في الجهاد والإبلاء أفضل من فِعْلِ ذلك في الموادعة.

ومثل هذا مُقَصّر غيرُ بالغ مَبْلَغَ ما تقدّم في هذا الباب من الحذف الجيّد.

وأقبح من هذا كلِّهِ قول المخبل في الزّبرقان:

وأبُوكَ بَدْرٌ كان يَنْتَهِسُ الحَصَى

وأبي الجَواد رَبيعةُ بن قَبالِ[84]

فقال الزبرقان: لا بَأْسَ؛ شيخان اشتركا في صنعة.

الإطناب

قال أصحاب الإطناب: المنطق إنّما هو بيانٌ، والبيان لا يكونُ إلّا بالإشْبَاع، والشفاء لا يقعُ إلّا بالإقناع، وأفضلُ الكلام أبيَنُه، وأبينه أشدُّه إحاطةً بالمعاني، ولا يُحَاط بالمعاني إحاطةً تامّة إلّا بالاستقصاء، والإيجاز للخواصّ، والإطناب مشتركٌ فيه الخاصّة والعامّة، والغبي والفَطِن، والرَّيض والمرتاض، ولمعنًى ما أُطيلت الكتب السلطانية في إفهام الرعايا.

والقولُ القصد أنَّ الإيجازَ والإطنابَ يُحْتَاجُ إليهما في جميع الكلام وكلِّ نوع منه؛ ولكلٍّ واحدٍ منهما مَوْضع، فالحاجةُ إلى الإيجازِ في موضعه كالحاجة إلى الإطنابِ في مكانه؛ فمَن أزالَ التدبيرَ في ذلك عن جهته، واستعمل الإطنابَ في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ.

كما رُوي عن جعفر بن يحيى أنّه قال مع إعجابه بالإيجاز: متى كان الإيجاز أبلغَ كان الإكثارُ عِيًّا. ومتى كانت الكنايةُ في مَوْضِع الإكثار كان الإيجاز تَقْصيرًا.

وأمر يحيى بن خالد بن برمك اثنين أنْ يكتبا كتابًا في معنى واحد، فأطالَ أحدُهما، واختصر الآخر؛ فقال للمُخْتَصِر وقد نظر في كتابه: ما أرى مَوْضِع مَزِيد. وقال للمُطِيل: ما أرَى مَوْضِعَ نُقْصان.

وقال غيره: البلاغةُ الإيجاز في غير عَجْز، والإطنابُ في غير خَطَل. ولا شَكَّ في أنّ الكتبَ الصادِرة عن السلاطِين في الأمور الجسيمة، والفتوح الجليلة، وتَفْخِيمِ النِّعم الحادِثة، والترغيب في الطاعة، والنَّهْي عن المعصية، سبيلُها أنْ تكونَ مُشْبِعَة مستقصاةً، تَمْلأُ الصدورَ، وتأخذُ بمَجَامِعِ القلوب؛ ألَا ترى أنّ كتاب المهلب إلى الحجاج في فتح الأزارفة:

الحمدُ لله الذي كفى بالإسلام فقد ما سِوَاه، وجعل الحمد متّصلًا بنعمته، وقضى ألّا ينقطعَ المزيدُ من فَضْلِه، حتّى ينقطعَ الشكر من خَلْقه، ثم إنّا كنّا وعدوّنا على حالتين مختلفتين، نرى فيهم ما يَسُرّنا أكثر مما يسوؤنا، ويرون فينا ما يسوؤهم أكثر ممّا يسرّهم. فلم يَزَلْ ذلك دَأْبَنا ودَأْبَهم؛ ينصرنا اللهُ ويخذلهم، ويمحّصنا ويمحقهم، حتى بلغ الكتابُ بِنَا وبهم أجلَه؛ فقطع دابر القومِ الذي ظلموا والحمدُ لله ربّ العالمين.

وإنّما حَسُنَ في موضعه ومع الغَرَضِ الذي كان لكاتبه فيه؛ فأمّا إنْ كتب مثله في فتحٍ يوازي ذلك الفتحَ في جلالةِ القَدْر وعُلُوِّ الخَطَر، وقد تطلَّعت أنْفُس الخاصة والعامة إليه وتصرَّفَتْ فيه ظنونُهم، فيورد عليهم مِثْلَ هذَا القَدْرِ من الكَلام في أقبحِ صورةٍ وأَسْمَجها وأشوهها وأهَجْنها كان حقيقًا أنْ يُتعجَّب منه.

وكذلك لو كَتب عن السلطان في العَدْلِ والتوبيخ وما تَجب القلوب منه من التغيير والتنكير بمثل ما رُوِي أنّ الوليد بن يزيد كتب إلى وَالِي العراقين حين عتب عليه: إنّي أراك تقدِّمُ في الطاعة رِجْلًا وتؤخِّر أخرى، فاعْتَمِدْ على أيتهما شِئْتَ، والسلام.

وبمثل ما كتب جعفرُ بن يحيى إلى عامل شُكِي: قد كَثُرَ شاكَوك، وقَلَّ شاكِرُوك؛ فإمَّا عَدَلْتَ، وإمّا اعتَزَلْت.

ومثلُ هذا ما كتَبَ به بعضُ الكُتَّابِ إلى عامِله على الخراج، وقد وقع عليه تحاملٌ على الرعيَّةِ: إنّ الخَراجَ عمود الملك، وما اسْتُغْزِرَ بمثل العدل، ولا استنزر بمثل الجَوْرِ.

فهذا الكلام في غايةِ الجَوْدَةِ والوجازة، ولكنْ لا يَصْلُح من مِثْل صاحبه وبالإضافة إلى حاله؛ فالإطنابُ بلاغة؛ والتطويل عِيٌّ، لأنّ التطويل بمنزلة سُلوكِ ما يَبْعُد جَهْلًا بما يَقْرب. والإطنابُ بمنزلة سلوكِ طريق بَعيد نَزِه يحتوي على زيادة فائدة.

وقال الخليل: يُختصر الكتاب ليُحْفَظ، ويُبْسَط ليُفْهَم. وقيل لأبي عمرو بن العلاء: هل كانت العرب تُطِيل؟ قال: نعم، كانت تُطيل ليُسْمَع منها، وتُوجِز ليُحْفَظ عنها.

والإطناب إذا لم يكن منه بُدٌّ إيجاز؛ وهو في المواعظ ـ خَاصّة ـ محمود؛ كما أنَّ الإيجازَ في الإفهام محمود ممدوح.

والموعظة كقول الله تعالى: (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ، أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ، أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) [الأعراف: 97 ـ 99]. فتكرير ما كرِّر من الألفاظ هَا هُنا في غايةِ حُسْنِ الموقع.

وقيل لبعضهم: متى يُحْتَاج إلى الإكثار؟ قال: إذا عَظُم الخَطْب. وأنشد:

صَمُوتٌ إذا ما الصَّمْتُ زَيَّن أَهْلَهُ

وفَتّاق أبكارِ الْكَلامِ المحبَّرِ

وقال آخر:

يَرْمُونَ بالخُطَبِ الطِّوالِ وتَارَةً

وَحْيَ المَلَاحِظِ خَشْيَةَ الرُّقَبَاءِ

وقال بعضهم:

إذَا ما ابْتَدى خَاطِبًا لم يُقَلْ

لهُ أطِلِ الْقَوْلَ أوْ قَصِّرِ

طَبيبٌ بدَاءِ فُنونِ الْكَلا

مِ لم يَعْيَ يَومًا ولم يَهْذِرِ

فإنْ هُوَ أطْنَبَ في خُطْبَةٍ

قَضَى للمُطِيلِ على الْمُقْصِر

وإنْ هُوَ أوْجَزَ في خُطْبَةٍ

قَضَى للمُقِلِّ على المُكْثِرِ

ووجَدْنا الناسَ إذا خطبوا في الصُّلح بين العشائر أطَالوا؛ وإذا أنْشَدُوا الشِّعْرَ بين السِّماطين[85] في مديح الملوك أطنبوا؛ والإطالةُ والإطنابُ في هذه المواضع إيجاز.

وقيل لقيس بن خارجة: ما عندك في حَمَالات[86] دَاحِس؟ قال: عندي قِرَى كلِّ نازل[87]، ورضَا كلِّ ساخِط، وخطبة من لَدُنْ مَطْلع الشَّمْسِ إلى أنْ تغرب، آمرُ فيها بالتَّوَاصُل وأنهي عَن التقاطع. فقيل لأبي يعقوب الخُرَيمي: هَلَّا اكتفى بقوله: "آمُر فيها بالتواصل" عن قوله: "وأنهي عن التقاطع"؟ فقال: أوَما علمتَ أنّ الكناية والتعريض لا تَعْمَلُ عملَ الإطنابِ والتكشيف.

وقد رأينا اللهَ تعالى إذا خاطبَ العربَ والأعرابَ أخرج الكلام مخرج الإشارة والوَحي؛ وإذا خاطب بَني إسرائيل أو حَكَى عنهم جعل الكلام مَبْسَوطًا.

فممّا خاطب به أهلَ مكّة قولُه سبحانه: (إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) [الحج: 73]، وقوله تعالى: (إذًا لَذَهَبَ كُلُّ إلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) [المؤمنون: 91]. وقوله تعالى: (أوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) [ق: 37]، في أشباهٍ لهذا كثيرة.

وقلَّ ما تجدُ قصةً لبني إسرائيل في القرآن إلَّا مُطَوَّلة مشروحة ومكرَّرة في مواضع مُعَادة؛ لبُعْدِ فَهْمِهِم كان، وتأخُّر مَعْرِفَتهم.

وكلامُ الفصحاء إنّما هو شَوْبُ الإيجاز بالإطناب والفصيحِ العالي بما دون ذلك من القَصْدِ المتوسِّط، ليستدلّ بالقَصْدِ على العالي، وليخرجَ السامعُ من شيءٍ إلى شيء فيزدادَ نشاطُه وتتوفَّر رغْبَتُه، فيصرفوه في وجوه الكلامِ إيجازه وإطنابه، حتّى استعملوا التكرار ليتوكّد القول للسامع.

وقد جاءِ في القرآنِ وفصيح الشِّعر منه شيءٌ كثير، فمن ذلك قولُه تعالى: (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) [التّكاثر:3 - 4]. وقوله تعالى: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) [الشرح: 5 - 6]. فيكون للتوكيد كما يقول القائل: ارمِ ارمِ، واعجل اعجل. وقد قال الشاعر:

كَمْ نِعْمَةٍ كانَتْ لَكُمْ

كَمْ كَمْ وكمْ كانَتْ وَكَمْ

وقال آخر:

هلّا سَألْت جُموع كِنْدَ

ةَ يومَ وَلّوا أينَ أيْنَا

الاتِّباع

وإنَّما جَاؤوا بالصِّفَةِ وأرادوا تَوْكيدها فكرهوا إعادتها ثانيةً؛ فغيَّرُوا منها حَرْفًا، ثم أتبعوها الأولى؛ كقولهم: "عطشان نَطْشان" كرهوا أنْ يقولوا: "عَطْشان عَطْشان"؛ فأبدلوا من العين نونًا. وكذلك قالوا: حَسَن بسن. وشيطان ليطان، في أشباه له كثيرة.

وقد كرر الله ـ عزّ وجل ـ في سورة الرحمن قوله: (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)، وذلك أنّه عدَّد فيها نعماءه وأذْكر عبادَه آلاءَه، ونبّههم على قَدْرها، وقُدْرَتِه عليها، ولُطْفِه فيها، وجعلها فاصلةً بين كلِّ نعمة ليعرف موضِع ما أسْدَاه إليهم منها.

وقد جاء مثلُ ذلك عن أهل الجاهليَّة؛ قال مهلهل:

على أنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلَيْبِ

فَكَرَّرَها في أكْثر من عشرين بيتًا.

وهكذا قول الحارث بن عَبَّاد:

قرّبا مربط النعامة منّي

كرَّرَها أكثر من ذلك؛ هذا لَمَّا كانت الحاجةُ إلى تكريرها مَاسّة، والضرورة إليه دَاعية، لعِظَم الخَطْبِ، وشِدَّةِ مَوْقع الفجيعة؛ فهذا يَدُلُّك على أنَّ الإطنابَ في موضعه عندهم مُسْتَحْسَن، كما أنَّ الإيجازَ في مكانه مُسْتَحَبّ.

ولا بُدَّ للكاتب في أكثر أنواع مكاتباته من شُعْبَةٍ من الإطنابِ يستَعْمِلُهَا إذا أراد المزاوَجَة بين الفصلين، ولا يُعابُ ذلك منه. وذلك مثل أنْ يكتب: عَظُمَتْ نِعَمُنَا عليه، وتظاهر إحسانُنا لديه. فيكون الفصلُ الأخير داخلاً في معناه في الفَصْل الأول؛ وهو مستحسَن لا يَعِيبُه أحد.

ولمّا أُحيط بمروان قال خادمُه باسل: مَن أغْفَل القليلَ حتّى يكثر، والصغيرَ حتّى يكبر، والخفّي حتّى يظهر أصابه مثلُ هذا.

وهذا كلامٌ في غاية الحُسْنِ، وإنْ كان معنى الفصلين الأخيرين داخلاً في الفصل الأول.

وهكذا قول الشاعر:

إنَّ شَرْخَ الشَّبابِ والشَّعر الأسْـ

ـود ما لم يُعاصَ[88] كانَ جُنُونا

فالشَّعر الأسود داخل في شَرْخ الشباب.

وكذلك قول أبي تمام:

رُبَّ خَفْضٍ[89] تَحْتَ السرَى وغَنَاءٍ

من عَنَاءٍ ونَضْرَةٍ مِنْ شُحُوبِ

الغناء داخلٌ في الخَفْضِ، والعَنَاءُ داخلٌ في السّرى فاعْلَم.

وممّا هو أجَلُّ من هذا كلّه قول الله ـ عزَّ وجلَّ-: (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ) [النحل: 90]، فالإحسانُ دَاخِلٌ في العَدْلِ، وإيتاء ذِي القُرْبَى داخلٌ في الإحسان؛ والفَحْشَاء داخلٌ في المنكر، والبَغْيُ داخلٌ في الفحش.

وهذا يدلُّ على أنّ أعظم مدار البلاغةِ على تحسين اللّفظ؛ لأنّ المعانيَ إذا دخل بعضُها في بَعْض هذا الدخول، وكانت الألفاظُ مختارَةً حَسُنَ الكلام؛ وإذا كانت مرتّبة حسنةً والمعارض سيئة كان الكلامُ مردودًا. فاعْتَمِدْ على ما مثَّلْته لك، وقِسْ عليه إنْ شاء الله.

التشبيه

التشبيه: الوصفُ بأنّ أحدَ الموصوفين ينوبُ منابَ الآخر بأداة التشبيه، نابَ منابه أو لم يَنُبْ، وقد جاء في الشِّعرِ وسائرِ الكلام بغير أداةِ التشبيه. وذلك قولك: زيدٌ شديد كالأسد؛ فهذا القول الصوابُ في العُرْفِ وداخلٌ في محمودِ المبالغة، وإنْ لم يكن زيد في شدَّتِه كالأسد على الحقيقة؛ على أنَّه قد رُوي أنَّ إنسانًا قال لبعض الشُّعراء: زعمتَ أنَّك لا تكذِب في شِعرك، وقد قلت:

ولأنْتَ أجرَأُ من أُسَامَةَ

أوَ يجوزُ أَنْ يكونَ رجلٌ أشجعَ من أسد! فقال: قد يكونُ ذلك؛ فإنّا قد رأينا مجزأة بن ثور فتح مدينةً ولم نرَ الأسدَ فعلَ ذلك، فهذا قَوْل.

ويصحُّ تشبيه الشيء بالشيء جُملة، وإنْ شابهه من وَجْهٍ واحد؛ مثل قولك: وجهك مثل الشمس، ومثل البدر، وإنْ لم يكُنْ مثلهما في ضيائهما وعلوِّهما ولا عِظَمِهما، وإنّما شبَّهه بهما لمعنًى يجمعهما وإيّاه وهو الحُسْن. وعلى هذا قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلَامِ) [الرحمن: 24]؛ إنَّما شبَّه المراكب بالجبال من جهةِ عِظَمِها لا من جهة صلابتها ورُسوخِها ورزَانَتِها، ولو أشبه الشيءُ الشيءَ من جميع جهاته لكان هو هو.

أوجه التشبيه

والتشبيهُ على ثلاثةِ أوجه: فواحدٌ منها تشبيه شيئين متَّفقين من جهة اللّون؛ مثلُ تشبيهِ الليلة بالليلة، والماء بالماء، والغراب بالغراب، والحرَّة بالحرَّة. والآخر تشبيهُ شيئين متّفقين يُعْرَفُ اتِّفاقُهما بدليل؛ كتشبيه الجوهر بالجوْهَر، والسواد بالسواد. والثالث تشبيهُ شيئين مختلفين لمعنًى يجمَعُهما؛ كتشبيه البيان بالسِّحْر؛ والمعنى الذي يجمعهما لطافةُ التدبير ودقةُ المَسْلَك. وتشبيهُ الشدَّة بالموت، والمعنى الذي يجمعهما كراهيةُ الحال وصعوبة الأمر.

أجود التشبيه

وأجود التشبيه وأبلغه ما يقع على أربعة أوجه:

أحدها: إخراج ما لا تَقَع عليه الحاسة إلى ما يقع عليه؛ وهو قول الله ـ عزَّ وجلَّ-: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً) [النور: 39]. فأخرج ما لا يحسّ إلى ما يحسّ؛ والمعنى الذي يجمعهما بُطْلَان المتوهم من شِدَّةِ الحاجةِ وعِظَمِ الْفَاقَة[90]، ولو قال: يَحْسبَه الرأي ماء لم يَقَعْ موقع قوله: "الظمآن"؛ لأنّ الظمآن أشدُّ فاقةً إليه، وأَعْظَمُ حِرْصًا عليه.

وهكذا قولُه تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ) [إبراهيم: 18]. والمعنى الجامعُ بينهما بعدُ التَّلاقِي، وعدَمُ الانتفاع.

وكذلك قوله ـ عزَّ وجلَّ-: (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ) [الأعراف: 176]، أَخْرَجَ ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقَع عليه من لهث الْكَلْبِ. والمعنى أنَّ الكَلْبَ لا يُطِيعُك في تَرْكِ اللهث على حالٍ، وكذلك الكافرُ لا يُجيبُك إلى الإيمان في رِفْقٍ ولا عُنْفٍ.

وهكذا قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ) [الرعد: 14]. والمعنى الذي يجمعُ بينهما الحاجةُ إلى المنفعة، والحَسْرَةُ لما يفوتُ من دَرك الحاجة.

والوجهُ الآخر إخراج ما لم تَجْرِ به العادةُ إلى ما جَرَتْ به العادة؛ كقوله تعالى: (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ) [الأعراف: 171]، والمعنى الجامعُ بين المشبَّهِ والمشبَّهِ به الانتفاعُ بالصورة.

ومن هذا قوله تعالى: (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ) إلى قوله: (كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ) [يونس: 24]، هو بيان ما جَرَتْ به العادةُ إلى ما لم تَجْرِ به. والمعنى الذي يجمع الأمرين الزينةُ والبَهْجَة، ثمّ الهلاك، وفيه العِبْرَة لمَن اعتبر، والموعظةُ لمَن تذكّر.

ومنه قوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ، تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ) [القمر: 19 ـ 20]، فاجتمع الأمران في قَلْعِ الرّيح لهما وإهلاكهما والتخوُّف من تعجيل العقوبة.

ومن هذا قوله تعالى: (فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)[الرحمن: 37]. والجامع للمعنيين الحُمْرَةُ ولين الجوَهرِ، وفيه الدُّلالة على عِظَم الشّأن؛ ونفوذِ السلطان.

ومنه قوله تعالى: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ) إلى قوله ـ عزَّ وجلّ-: (ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا) [الحديد: 20]، والجامعُ بَيْنَ الأمْرَيْنِ الإعجابُ، ثمَّ سرعةُ الانقِلاب؛ وفيه الاحتقارُ للدُّنيا والتَّحذِيرُ من الاغْتِرارِ بها.

والوجه الثالث: إخراجُ ما لا يُعْرف بالبَدِيهة إلى ما يُعْرَفُ بها؛ فمن هذا قولُه ـ عزَّ وجلَّ-: (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ) [آل عمران: 133]، قد أخرج ما لا يُعْلَم بالبديهة إلى ما يُعْلم بها؛

والجامعُ بين الأمرين العِظمُ؛ والفائدةَ فيه التشويقَ إلى الجنة بِحُسْن الصّفة.

ومثله قولُه سبحانه: (كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) [الجمعة: 5]، والجامعُ بين الأمرين الجهلُ بالمحمول؛ والفائدةُ فيه الترغيبُ في تحفُّظِ العلوم، وتَرْكُ الاتكالِ على الرِّواية دون الدِّرَاية.

ومنه قوله تعالى: (كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)[الحاقة: 7]؛ والجامع بين الأمرين خُلُوّ الأجْسَاد من الأرْوَاح؛ والفائدةُ الحثّ على احتقارِ ما يؤُول به الحالُ.

وهكذا قوله سبحانه: (كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا) [العنكبوت:41]، فالجامعُ بين الأمْرَيْن ضَعْفُ المعتَمد؛ والفائدةُ التحذيرُ من حَمْل النفس على التغرير بالعملِ على غير أسّ.

والوجهُ الرابع: إخراجُ ما لا قوّة له في الصفة على ما له قوةٌ فيها؛ كقوله ـ عزَّ وجلَّ-: (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) [الرحمن: 24]، والجامعُ بين الأمرَيْن العِظَم، والفائدةُ البيانُ عن القُدرة في تَسْخِير الأجسامِ العِظامَ في أعْظم ما يكونُ من الماء. وعلى هذا الوجه يَجْرِي أكثرُ تشبيهاتِ القرآن، وهي الغايةُ في الجَوْدَة، والنهايةُ في الحسن.

وقد جاء في أشعار المحدَثين تشبيهُ ما يَرَى العيَانُ بما يُنَال بالفكر، وهو رَدِيء، وإنْ كان بعضُ الناس يستحسِنُه لما فيه من اللطافة والدِّقة، وهو مثل قول الشاعر:

وكنتُ أعَزّ عزًّا من قنُوعٍ

يعوِّضُهُ صَفُوحٌ من مَلُولِ

فصِرْتُ أذلّ مِنْ معنًى دقيقٍ

به فقرٌ إلى فَهْمٍ جَلِيلِ

وكقول الآخر:

وندمانٍ سقيتُ الرَّاحَ صِرْفًا

وأُفْقُ اللَّيلِ مرتفع السُّجُوفِ

صَفَتْ وصَفَتْ زُجَاجَتُها عَلَيْها

كمعنًى دقّ في ذِهْنٍ لَطِيف

فأخْرَج ما تَقعُ عليه الحاسّة إلى ما لا تَقَعُ عليه، وما يُعْرَف بالعيان إلى ما يُعْرَف بالفكر، ومثله كثيرٌ في أشعارهم.

الطريقة المسلوكة في التشبيه

وأمَّا الطريقةُ المسلوكةُ في التشبيهِ، والنُّهج القاصدُ في التمثيل عند القدماء والمحدَثين فتشبيهُ الجَوادِ بالبَحْر والمطر، والشجاعِ بالأسد، والحَسَنِ بالشمس والقمر، والسهمِ الماضي بالسيف، والعالي الرّتبة بالنَّجْم، والحَليم الرزين بالجَبَل، والحيي بالبِكْر، والفائت بالحُلْم؛ ثم تشبيه اللئيم بالكلْب، والجبان بالصِّفْرد[91]، والطائش بالفَراش، والذّليل بالنّقد[92]، والنَّعْل والفَقْع[93] والوتد؛ والقاسي بالحديد والصَّخْر، والبليد بالجماد؛ وشُهِرَ قومٌ بِخِصَالٍ محمودة؛ فصاروا فيها أعلامًا فجرَوْا مجرى ما قدّمناه؛ كالسموأل في الوَفاء، وحاتم في السَّخاء، والأحْنَف في الحِلم، وسَحْبان في البلاغة، وقُسّ في الخطابة، ولُقْمان في الحِكمة. وشُهِر آخرون بأضْدَادِ هذه الخصال؛ فشبّه بهم في حال الذم كبَاقِل في العيّ[94]، وهبَنَّقة في الحُمْق، والكسعيّ في النَّدامة، والمَنْزُوف في الجُبْن، ومَادِر في البُخْل.

والتشبيهُ يَزيدُ المعنى وضوحا ويُكْسِبُه تأكيدًا؛ ولهذا ما أطبق جَميعُ المتكلمين من العرب والعَجَم عليه، ولم يستَغْنِ أحدٌ منهم عنه.

وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كلّ جيل ما يستدلُّ به على شرفه وفَضْلِه ومَوْقِعه من البلاغة بكلِّ لسان. فمن ذلك ما قال صاحب كليلة ودمنة: الدنيا كالماءِ الملح كلّما ازدَدْتَ منه شُرْبًا ازددتَ عطشًا. وقال صُحْبَةُ الأشرارِ تُورثُ الشرَّ كالريح إذا مرَّتْ على المُنْتِنِ حملت نتنًا، وإذا مرّت على الطيب حملت طيبًا. وقال مَنْ لا يشكر له كانَ كمَنْ نَثَر بذره في السِّبَاخ[95]، ومَن أشارَ على مُعْجب كان كمن سارَّ الأصم. وقد نظمتُ هذا المعنى فقلتُ:

ألَا إنَّمَا النعمى تُجَازى بمثْلِها

إذا كان مسدَاها إلى ماجِدٍ حُرِّ

فأمَّا إذا كانَتْ إلى غيرِ ماجدٍ

فَقَدْ ذَهَبَتْ في غير أجْرٍ ولا شُكْرِ

إذا المرءُ ألقَى في السِّبَاخِ بُذُورَهُ

أضاعَ فلمْ ترجع بزَرْع ولا بَذْرِ

وقال: لا يخفى فَضْلُ ذي العلم وإنْ أخفَاه كالمِسْك يُخْبأ ويُسْتَرَ، ثم لا يمنع ذلك رائحتَه أنْ تفوح. أخذه الصاحب فكتب: فأنتَ ـ أدام الله عزَّك ـ وإنْ طوَيْتَ عنّا خبَرَك، وجعلْتَ وطنَك وطَرَك[96]، فأنْبَاؤك تأتينا، كما وشى بالمسك رَيَّاه، ونَمَّ على الصباح مُحَيَّاه.

وقال أيضًا: الرجلُ ذُو المروءة يُكْرَم على غير مَال كالأسد يُهابُ وإنْ كان رَابِضًا، والرجلُ الذي لا مروءة له يُهانُ وإنْ كان غنيًّا كالكلب يَهُون على الناس وإنْ عسّ[97] وطَوّف.

وقال: المودَّة بين الصالحين سَريعٌ اتصالُها بطيءٌ انقطاعها كآنيةِ الذهب التي هي بطيئةُ الإنكسار هيِّنة الإعادة؛ والمودةُ بين الأشرارِ سريعٌ انقطاعُها بَطيءٌ اتصالُها كآنيةِ الفخّار يكسرها أدنى شَيء، ولا وَصْلَ لها.

وقال: لا يردّ بأس العدوّ القويّ بمثل التذلُّل له، كما أنّ العُشْبَ إنَّما يَسْلَمُ من الريح العاصفِ بِلينِه لها وانثْنِائِه معها.

وقال: لا يُحَبُّ للمذنِب أنْ يفحص عَنْ أمره لقُبْح ما ينكشف عنه، كالشيء المُنْتن كلَّما أُثِير ازداد نتنًا.

وقال أيضًا: مَن صنع معروفًا لعاجلِ الجزاءِ فهو كمُلْقي الحبّ للطير لا ليَنْفَعَها بل ليَصِيدَها به.

وقال أيضًا: المالُ إذا كان له مَدَد يجتمعُ منه ولم يُصْرَف في الحقوقِ أسْرَعَ إليه الهلاك من كلّ وَجْه، كالماء إذا اجتمع في موضع ولم يكن له طريقٌ إلى النفوذ تَفَجَّر من جوانبه فضَاع.

وقال أيضًا: الأدَبُ يُذْهِب عن العاقل السُّكر ويزيد الأحمق سُكرًا، كالنهار يَزِيد البصيرَ بصرًا ويزيد الخفّاش سوءَ بصر.

وقد أَحْسَنَ في هذا المعنى جعفر بن محمد رضي الله عنهما، فقال: الأدبُ عند الأحمق كالماء العَذْب في أصول الحنظل كلَّما ازدَادَ رِيًّا ازداد مَرَارة.

وقال ابن المقفع: إذا عَثَر[98] الكريم لم ينتعش إلّا بكريم، كالفيل إذا توحّل لم يقلعه إلّا الفيلة.

وقال الشاعر في هذا المعنى:

وإذا الكريمُ كَبَتْ به أيامُه

لم ينتعش إلّا بعَطْفِ كريم

وقال صاحب كليلة أيضًا: يبقى الصالحِ من الرّجال صالحًا حتى يُصاحب فاسدًا، فإذا صاحبَه فسد، مثل مياهِ الأنهار تكون عَذْبة حتى تُخَالِطَ ماءَ البحر، فإذا خالطته ملحت.

وقال بعضُ الحكماء: الدنيا كالمِنَجَل استواؤُها في اعوجاجِها.

وجوه التشبيهة

والتشبيه بعد ذلك في جميع الكلام يَجْرِي على وجوه:

منها تشبيه الشيء بالشيء صورة؛ مثل قول الله ـ عزَّ وجلَّ-: (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ[99] الْقَدِيمِ) [يس: 39]. أخذه ابن الرومي، فقال في ذمّ الدهر:

تَأْتِي على الْقَمَر السَّاري نَوَائبه

حتى يُرَى نَاحِلًا في شَخْصِ عُرْجُون

وأين يقع هذا من لَفْظِ القرآن.

ومن ذلك قول امرئ القيس:

كأنّ قلوبَ الطيرِ رَطْبًا ويَابِسًا

لدى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ الْبَالِي[100]

الاستعارة والمجاز

الاستعارة والغرض منها

الاستعارة: نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إمَّا أنْ يكون شَرْح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرُز فيه؛ وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة؛ ولولا أنّ الاستعارةَ المصيبة تتضمّن ما لا تتضمّنه الحقيقة؛ من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالًا.

والشاهد على أنَّ للاستعارة المصيبة من الموقع ما ليس للحقيقة أنّ قول الله تعالى: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ) [القلم: 42] أبلغ وأحسن وأدخل ممّا قصد له من قوله لو قال: يوم يكشف عن شدّة الأمر، وإنْ كان المعنيان واحدًا؛ أَلَا ترى أنّك تقول لمَن تحتاج إلى الجد في أمره: شمّر عن ساقك فيه، واشدُدْ حيازيمك له؛ فيكونُ هذا القول منك أوكد في نفسه من قولك: جدّ في أمرك، وقول دريد بن الصمة:

كَمِيشُ الإزارِ خارجٌ نصفُ ساقه

صبورٌ على العزَّاء طَلَّاع أنجدِ[101]

وقال الهُذَليّ:

وكنتُ إذا جارِي دعا لِمضُوفَةٍ

أشمِّر حتى ينصُفَ الساقَ مئزرِي[102]

وتقول العرب: ما رزأته زِبالًا. والزّبال: ما تحمله النحلةُ بفيها، يريدون ما نقصته شيئًا. وقال النابغة:

يجمع الجيشَ ذَا الألوفِ ويَغْدو

ثُمَّ لا يرزأ العدوَّ فتيلا[103]

ولو قلت أيضًا: ما يلمك شيئًا البتّة، وما يظلمون شيئًا لما عمل عمل قولك: ما يملكون قِطْميرا. ولا يظلمون نَقيرا[104]؛ وإنْ كان في الأول ما يؤكّده من قولك: البتة، وأصلا. كذا حكاه لي أبو أحمد عن أبيه عن عسل بن ذكوان. وليس يقتضي هذا أنّهم يظْلمون دون النَّقِير، أو يملكون دون القِطْمير؛ بل هو نَفْيٌ لجميع المُلْك والظلم، لا يشكّ في ذلك مَن يسمعه.

وفضل هذه الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة أنّها تفعل في نَفْس السامع ما لا تفعل الحقيقة؛ ومن غير هذا النوع قوله تعالى: (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ) [الرحمن: 31] معناه سنقصد؛ لأنّ القصد لا يكون إلّا مع الفراغ ها هنا معنى ليس في القصد وهو التوعد والتهديد: ألَا ترى قولك: سأفرغ لك، يتضمّن من الإيعاد ما لا يتضمّنه قولك: سأقصِد لك. وهكذا قوله تعالى: (وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ) [إبراهيم: 43]،؛ أي لا تعي شيئًا، لأنّ المكان إذا كان خاليًا فهو هواء حتى يشغله شيء. وقولك: هذا أوجز من قولك: لا تعي شيئًا، فلإيجازه فَضَل الحقيقة. وكذلك قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ) [الكهف: 21]، معناه أَطْلَعْنَا عليهم. والاستعارة أبلغ؛ لأنّها تتضمّن غفلة القوم عنهم حتّى اطلعوا عليهم، وأصله أنّ مَن عثر بشيء وهو غافل نظر إليه حتى يعرفه، فاستعير الإعثار مكان التبيين والإظهار. ومنه قول الناس: ما عثرت من فلان على سوء قط؛ أي ما ظهرت على ذلك منه.

ومنه قوله عزَّ اسمه: (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ منها) [الأنعام: 122]؛ فاستعمل النور مكان الهدى، لأنه أَبْيَن، والظلمة مكان الكفر لأنّها أشهر. وكذلك قوله تعالى: (وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) [الشرح: 2 - 3]، وأصْلُ الوِزْر ما حَمَله الإنسان على ظهره. ومن ذلك قوله ـ عزَّ وجلَّ-: (وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا) [طه: 87] أيْ أحمالًا من حَلْيهم، فذكر الحَمْل وأراد الإثم لما في وضع الحَمْل عن الظهر من فضل الاستراحة، وحَسُن ذكر إنقاض الظهر وهو صوته لذكر الحَمْل؛ لأنّ حامل الحَمْل الثقيل جدير بإنقاض الظهر، والأوزار أيضًا: السلاح. ومنه قوله تعالى: (حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) [محمد: 4].

وقال الشاعر:

وأعدَدْتُ للحرب أوزارها

رِماحًا طوالًا وخيلًا ذُكورا

وقوله تعالى: (وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ) [البقرة: 267]، أي ترخّصوا. والاستعارة أبلغ؛ لأنّ قولك: أغمض عن الشيء أدعى إلى ترك الاستقصاء فيه من قولك: رخص فيه. وكذلك قوله تعالى: (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) [البقرة: 187] معناه فإنّه يماسّ المرأة وزوجها يماسّها. والاستعارة أبلغ؛ لأنّها أدلّ على اللصوق وشدّة المماسة. ويحتمل أنْ يقال: إنّهما يتجردان ويجتمعان في ثوب واحد ويتضامّان فيكون كلّ واحد منهما للآخر بمنزلة اللباس، فيجعل ذلك تشبيهًا بغير أداة التشبيه.

ولا بدَّ لكلّ استعارة ومجاز من حقيقة، وهي أصل الدلالة على المعنى في اللغة، كقول امرئ القيس:

وقد أغتدِي والطيرُ في وكُنَاتها

بمنجَردٍ قِيدِ الأوابدِ هَيْكَلِ[105]

والحقيقة مانع الأوابد من الذهاب والإفلات، والاستعارة أبلغ؛ لأنّ القيد من أعلى مراتب المنع عن التصرّف، لأنّك تشاهد ما في القيد من المنع، فلست تَشكّ فيه.

وكذلك قولهم: هذا ميزان القياس؛ حقيقته تعديل القياس، والاستعارة أبلغ؛ لأنّ الميزان يصوّر لك التعديل حتّى تعاينه، وللعيان فضل على ما سواه. وكذلك: العَروض ميزان الشِّعر، حقيقته تقويمه.

ولا بدّ أيضًا من معنى مشترك بين المُسْتَعار والمُسْتَعار منه؛ والمعنى المشترك بين قيد الأوابد ومانع الأوابد هو الحبس وعدم الإفلات، وبين ميزان القياس وتعديله حصول الاستقامة وارتفاع الحيف والميل إلى أحد الجانبين؛ وهكذا جميع الاستعارات والمجازات.

ومن ذلك قوله تعالى: (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) [الفرقان: 23] حقيقته عَمَدنا، وقدِمنا أبلغ؛ لأنّه دلَّ فيه على ما كان من إمهاله لهم، حتى كأنَّه كان غائبًا عنهم، ثمّ قَدِم فاطّلع منهم على غير ما ينبغي فجازاهم بحسبه؛ والمعنى الجامع بينهما العَدْل في شدَّة النكير؛ لأنَّ العمد إلى إبطال الفاسد عدل. وأمّا قوله: (هَبَاءً مَنْثُوراً) فحقيقته أبطلناه حتى لم يحصل منه شيء، والاستعارة أبلغ؛ لأنّه إخراج ما لا يُرى إلى ما يُرى.

والشاهد أيضًا على أنَّ الاستعارة أبلغ من الحقيقة أنَّ قوله تعالى: (إِنَّا لمَّا طغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكَمْ فِي الْجَارِيَةِ) [الحاقة: 11] حقيقته علَا وطما، والاستعارة أبلغ؛ لأنَّ فيها دلالة القهر، وذلك أنَّ الطغيان علوّ فيه غَلَبة وقَهْر. وكذلك قوله تعالى: (بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ) [الحاقة: 6] حقيقته شديدة، والاستعارة أبلغ؛ لأنَّ العتو شدّة فيها تمرّد. وقوله تعالى: (سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ، تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ) [الملك: 7 - 8] حقيقة الشهيق هاهنا الصوت الفظيع؛ وهما لفظتان، والشهيق لفظة واحدَة فهو أوجز على ما فيه من زيادة البيان. وتَمَيَّز: حقيقتُه تنشّق من غير تباين، والاستعارة أبلغ؛ لأنّ التميَّز في الشيء هو أنْ يكونَ كلُّ نوعٍ منه مباينًا لغيره وصائرًا على حدَّته، وهو أبلغ من الانشقاق؛ لأنَّ الانشقاق قد يحصُل في الشيء من غير تباين، والغيظُ حقيقته شدّة الغليان، وإنّما ذَكَرَ الغيظ؛ لأنَّ مقدارَ شدَّته على النفس مُدرَك محسوس، ولأنَّ الانتقام منًّا يقع على قَدْره؛ ففيه بيان عجيبٌ وزجْرٌ شديد لا تقوم مقامه الحقيقة البتَّة.

وقوله تعالى: (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) [الأعراف: 154] معناه ذهب، وسكت أبلغ؛ لأنَّ فيه دليلًا على موقع العودة في الغَضب إذا تُؤمل الحال، ونظر فيما يعود به عبادة العِجْل من الضَّرر في الدِّين، كما أنَّ الساكتَ يتوقَّعُ كلامه.

وقوله تعالى: (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) [المدثر:11]. وحقيقته ذَرْ بأسي وعذابي، إلَّا أنَّ الأول أبلغ في التهدد؛ كما تقول إذا أردتَ المبالغة والإيعاد: ذَرْنِي وإيّاه، ولو قال: ذرْ ضربي له وإنكاري عليه لم يسدّ ذلك المَسَدّ، ولعلَّه لم يكن حسنًا مقبولًا. وقوله - عزَّ وجل-: (فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ) [الإسراء: 12] معناه كشفنا الظُّلْمة، والأول أبلغ؛ لأنَّك إذا قلتَ: محوت الشيء فقد بيَّنت أنَّك لم تُبقِ له أثرًا، وإذا قلتَ: كشفتُ الشيء مثل الستر وغيره لم تُبِنْ أنَّك أذهبته حتّى لم تبقِ له أثرًا. وقوله سبحانه: (وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً) [الإسراء: 12] حقيقته مضيئة، والاستعارة أبلغ؛ لأنَّها تكشف عن وجه المنفعة، وتظهر موقع النعمة في الإبصار.

وقوله تعالى: (وَاشْتَعَلَ الرَّأسُ شَيْبًا) [مريم: 4] حقيقته كَثُر الشَّيْبُ في الرأس وظَهَر، والاستعارة أبلغ؛ لفضل ضياء النار على ضياء الشَّيْب، فهو إخراج الظاهر إلى ما هو أظهر منه، ولأنّه لا يتلافى انتشاره في الرأس، كما لا يتلافى اشتعال النار. وقوله تعالى: (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ) [الأنبياء: 18]، حقيقته بل نورد الحقّ على الباطل فيذهبه. والقذف أبلغ من الإيراد؛ لأنَّ فيه بيان شدّة الوقع وفي شدّة الوقع بيانِ القهر، وفي القهر ها هنا بيان إزالة الباطل على جهة الحُجَّة، لا على جهة الشك والارتياب، والدمغُ أشد من الإذهاب، لأنَّ في الدمغ من شدَّة التأثير وقوّة النكاية ما ليس في الإذهاب. وقوله تعالى: (عَذَابُ يَوْم عَقِيم) [الحج: 55] وقوله عزَّ اسمه: (إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ) [الذاريات: 41] فالعقيم التي لا تجيء بولد؛ والولد من أعظم النِّعَم، وأجسم الخيرات؛ ولهذا قالت العرب: شَوْهَاءُ ولودٌ، خير من حسناء عقيم. فلمَّا كان ذلك اليوم لم يأتِ بمنفعة حين جاء، ولم يُبقِ خيرًا حين مرّ سُمّي عقيمًا. ويمكن أنْ يقال: إنّما سُمّي عَقيمًا لأنَّه لم يبقِ أحدًا من القوم، كما أنّ العَقيم لا يُخلف نَسْلا، وسمّى الريح، عقيمًا لأنّها لم تأتِ بمطر ينتفع به ويبقى له أثر من نبات وغيره؛ كما أنّ العقيم من النساء لا تأتي بولد يُرجى.

وفضل الاستعارة على الحقيقة في هذا أنّ حال العقيم في هذا أظهر قبحًا من حال الريح التي لا تأتي بمطر؛ لأنَّ العقيم كانت عند العرب أكره وأشنع من ريح لا تأتي بمطر؛ ولأنَّ العادة في أكثر الرياح

ألا تأتي بمطر؛ وليست العادةَ في النساء أنْ يكون أكثرهن عقيمًا.

وقوله تعالى: (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ) [يس: 37]، وهذا الوصف إنّما هو على ما يتلوَّح[106] للعين لا على حقيقة المعنى؛ لأنّ الليلَ والنهار اسمان يَقعان على هذا الجو عند إظلامه لغروب الشمس وإضاءته لطلوعها، وليسا على الحقيقة شيئين يُسْلَخُ أحدهما من الآخر، إلّا أنّهما في رأي العين كأنَّهما ذلك، والسلْخ يكون في الشيء الملتحِم بعضه ببعض، فلمَّا كانت هَوادي الصبح عند طلوعِه كالملتحِمة بأعجاز الليل أجْرَى عليها اسمَ السلْخ؛ فكان أفصح من قوله: يخرج؛ لأنّ السلخ أدلَّ على الالتحام المتوهّم فيهما من الإخراج.

وقوله تعالى: (فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا) [الزخرف: 11]، من قولهم: أنشر الله الموتى فنشروا، وحقيقته أظهرْنا به النبات؛ إلّا أنَّ إحياء الميت أعجب، فعبَّر عن إظهار النبات به فصار أحسن من الحقيقة.

وقوله تعالى: (وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ) [الأنفال: 7]، يعنى الحرب، فنبّه على ما لَهُ تُخاف الحرب؛ وهو شوكة السلاح وهي حدّه، فصار أحسن من الحقيقة لإنبائه عن نفس المحذور. ألا ترّى أنَّ قولك لصاحبك: لأوردنّك على حَدِّ السيف، أشدَّ موقِعًا من قولك له: لأحاربنّك.

وقوله تعالى: (وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ)[فُصّلت: 51]، أيْ كثير. والاستعارة أبلغ، لأنَّ معنى العَرْض في مثل هذا الموضع التمام. قال كُثيِّر:

أنت ابن فرْعي قريشٍ لو تقايسها

في المجد صار إليك العرضُ والطولُ

أيْ صار إليك المجدُ بتمامه؛ وقد يكون كثيرا غير تام.

وقوله تعالى: (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) [التكوير: 18]، حقيقته إذا انتشر، وتنفَّسٍ أبلغ لما فيه من بيانِ الرَّوْح عن النفس عن إضاءة الصّبح؛ لأنَّ الليل كربًا وللصبح تفرّجا قال الطِّرِمَاح:

على أنّ للعينيْنِ في الصُّبحِ راحةً

بطرحِهِما طرفيْهما كلَّ مَطْرحِ

والراحة التي يجدها الإنسان عند التنفس محسوسة.

وقوله تعالى: (مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا)[البقرة: 214]، حقيقته أزعجوا، والزلزلة أبلغ، لأنّها أشدّ من الإزعاج ومن كلّ لفظة يُعبّر بها عنه أيضًا.

وقوله تعالى: (أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا) [البقرة: 250]، حقيقته صَبِّرنا، والاستعارة أبلغ؛ لأنَّ الإفراغ يدل على العموم، معناه ارزقنا صبرًا يعمّ جميعنا كإفراغك الماء على الشيء فيعمّه.

وقوله سبحانه: (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ)[آل عمران: 113]، حقيقته حصلت، إلَّا أنَّ للضرب تبيينًا ليس للحصول، وقالوا: ضَرب على فلان البعث، أي أوجِب وأثبت عليه، والشيء يثبُت بالضرب ولا يثبُت بالحصول، والضرب أيضًا ينبئ عن الإذلال والنقص، وفي ذلك الزَّجر.

وقوله تعالى: (فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ) [آل عمران: 187]، حقيقته غَفلوا عنه، والاستعارة أبلغ؛ لأنَّ فيه إخراجَ ما لا يُرى إلى ما يُرى، ولأنَّ ما حصل وراء ظهر الإنسان فهو أحرْى بالغفلة عنه ممّا حصل قدامه.

وقوله تعالى: (أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا) [المائدة: 114]، حقيقته ذات سرور، والاستعارة أبلغ؛ لأنَّ العادة جرت في الأعياد بتوفير السرور عند الصَّغير والكبير، فتضمَّن من معنى السرور ما لا تتضمَّنه الحقيقة.

وكذلك قولُه عزَّ اسمه: (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا) [الأنعام: 68]. وقوله تعالى: (فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ) [الأعراف: 22]، أخرج ما لا يُرى من تنقُّصهم بآيات القرآن إلى الخوْض الذي يُرى. وعبَّر عن فعل إبليسَ الذي لا يُشاهد بالتدلِّي من العلوّ إلى سُفْل وهو مشاهد. ولما كانوا يتكلمون في آيات القرآن، وينتقصونها بغير بصيرة شبَّه ذلك بالخوض، لأنَّ الخائض يطأ على غير بصيرة.

وكذلك قولُه تعالى: (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) [الأعراف: 45]، حقيقته خطأ؛ لأنّ الاعوجاج مُشاهد والخطأ غير مشاهد. وكذلك قوله سبحانه: (أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) [هود: 80]، أيْ إلى مُعين؛ والاستعارة أبلغ؛ لأنَّ الركن مشاهد، والمعين لا يُشاهد من حيث أنّه مُعين.

وقوله عزَّ اسمه: (وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ) [الكهف: 17]" ليس في جميع القرآن أبلغ ولا أفصح من هذا، وحقيقة القرْض هنا هنا أنَّ الشمس تمسّهم وقتًا يسيرًا ثمّ تغيب عنهم، والاستعارة أبلغ؛ لأنَّ القرض أقل في اللفظ من كلّ ما يُستعمل بدله من الألفاظ، وهو دال على سرعة الارتجاع، والفائدة أنَّ الشمس لو طاولتْهَم بحرِّها لصهرتهم[107]، وإنَّما كانت تمسُّهم قليلًا بقَدْر ما يصلح الهواء الذي هم فيه؛ لأنَّ الشمس إذا لم تقع في مكان أصلًا فسد.

فهذه جملة ممّا في كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من الاستعارة، ولا وجه لاستقصاء جميعه؛ لأنَّ الكتاب يخرج عن حدِّه.

الاستعارة في كلام العرب

وأمَّا ما جاء في كلام العرب منه، فمثل قولهم: هذا رأس الأمر ووجهه، وهذا الأمر في جَنْب غيره يسير، ويقولون: هذا جَناح الحرب وقلْبها. وهؤلاء رؤوس القوم وجماجمهم وعيونهم. وفلان ظَهْرُ فلان، ولسان قومه ونابُهم وعَضُدهم. وهذا كلام له ظهر وبطن. وفي العرب الجماجم، والقبائل، والأفخاذ، والبطون، وخرج علينا عُنُق[108] من الناس. وله عندي يد بيضاء، وهذه سُرّة الوادي، وبابل عَيْن الأقاليم، وهذا أنْفَ الجَبل، وبَطْنُ الوادي، ويسمّون النبات نُوءًا.

ويقولون للمطر: سماء. قال الشاعر:

إذا سقطَ السماءُ بأرض قومٍ

رعيناهُ وإنْ كانوا غِضابا

ويقولون: ضحكت الأرض، إذا أنبتت؛ لأنَّها تُبْدِي عن حسن النبات كما يفتر الضاحك عن الثغر، ويقال: ضحكت الطلعة. والنور يضاحك الشمس. قال الأعشى:

يُضاحك الشمسَ منها كوكب شرقٌ

مؤزّر بعميم النبتِ مُكتهلُ[109]

ويقولون: ضحكَ السحاب بالبرق، وحنّ بالرعد، وبكى بالقطر. ويقولون: لقيت من فلان عَرَق القربة، أيْ شدّة ومشقّة. وأصل هذا أنّ حامل القربة يتعب من نَقْلها حتى يعرق. ويقولون أيضًا: لقيت منه عَرَق الجبين، والعرب تقول: بأرض فلان شجر قد صاح؛ وذلك إذا أطال فتبيّن للناظر بطوله، ودلّ على نفسه؛ لأنّ الصائح يدلّ على نفسه. ويقولون: هذا شجر واعِد، إذا أقبل بماء ونضرة؛ كأنه يعِد بالثَّمَر.

المطابقة

قد أجمع الناسُ أنّ المطابقة في الكلام هي الجمعُ بين الشيء وضدّه في جزءٍ من أجزاء الرّسالة أو الخطبة أو البيت من بُيوت القصيدة؛ مثل الجمع بين البياض والسواد، والليل والنهار، والحرّ والبرد.

وخالفهم قُدامة بن جعفر الكاتب، فقال: المطابقةُ إيرادُ لفظتين متشابهتين في البناء والصيغة مختلفتين في المعنى، كقول زياد الأعجم:

ونُبئُهم يَسْتَنْصِرُون بكاهلٍ

وللُّوْم فيهم كاهِلٌ وسَنَامُ[110]

وسَمّى الجِنس الأول التكافُؤ. وأهلُ الصنعةِ يسمُّون النوع الذي سمّاه المطابقة التعطّف. قال: وهو أنْ يذكر اللفظ ثمّ يكرِّره، والمعنى مختلف.

والطّباق في اللغة: الجمعُ بين الشيئين؛ يقولون: طَابَق فلان بين ثَوْبين، ثم استعمل في غير ذلك؛ فقيل: طابق البعيرُ في سَيْره، إذا وضع رجلَه موضعَ يَدِه، وهو راجعٌ إلى الجمع بين الشيئين. قال الجعديّ:

وخيلٍ تطابق بالدارعِين[111]

طباقَ الكِلابِ يَطَأنَ الهرَاسَا[112]

وفي القرآن: (سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا) [نوح: 15]، أي بعضُهن فوق بعض؛ كأنَّه شُبّه بالطَّبق يُجْعَل فوق الإناء؛ قال امرؤ القيس:

طَبَقُ الأرْضِ تَحرَّى وتَدُرّ[113]

وكلّ فِقْرَة من فِقَر الظهر والعُنق طَبَق، وذلك أنَّ بعضها منضُود على بعض.

فممّا في كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من الطِّباق قوله تعالى: (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) [فاطر: 13].

وقوله تعالى: (لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) [الأحزاب: 43] أيْ من الكفر إلى الإيمان.

وقوله ـ عزَّ وجلَّ-: (بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ) [الحديد: 13].

وقوله سبحانه: (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بما آتاكم) [الحديد: 23]، وهذا على غاية التساوي والموازنة.

وقوله تعالى: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) [الروم: 19].

وقوله جلَّ شأنُه: (وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا) [الفرقان:3].

وقوله عزّ اسمه: (لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) [النحل: 20، الفرقان: 3].

وقوله سبحانه: (فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) [الفرقان:70].

وقوله جلَّ ذكره: (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا) [النجم: 43 ـ 44].

وقد تنازع الناسُ في هذا المعنى، قال ابن مطير:

تضحك الأرضُ من بكاءِ السماءِ

وقال آخر:

ضحك المُزْنُ بِهَا ثمَّ بَكَى

وقال آخر:

فله ابتسامٌ في لَوامعِ بَرْقِهِ

وله بُكًا من وَدْقِهِ المُتَسَرِّبِ

وقال آخر:

لَا تَعْجِبي يَا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ

ضَحِكَ المَشِيبُ برَأْسِه فَبَكَى

فلم يقرب أحدٌ من لفظ القرآن في اختصاره وصفائه، ورَوْنَقِه وبهائه، وطُلَاوته ومائه؛ وكذلك جميعُ ما في القرآن من الطِّباق.

ومما جاء في كلام النبي عليه الصلاة والسلام من الكلام المُطابق قوله للأنصار: "إنَّكُمْ لتكثرون عند الفزع، وتقلّون عند الطمع". وقوله عليه الصلاة والسلام: "خيرُ المال عينٌ ساهرة لعَيْنٍ نائمة"، يعنى عينَ الماء ينامُ صاحبُها وهي تَسْقِي أرضه. وقولُه عليه الصلاة والسلام: "إيَّاكم والمشارَّة فإنَّها تُميت الغُرّة وتُحْيِي العُرّة"[114].

ومن سائر الكلام قول الحسن: ما رأيتُ يقينًا لا شكّ فيه أشبه بشكٍّ لا يقينَ فيه من المَوْت. وقال أيضًا رضي الله عنه: "إنّ مَنْ خَوَّفَك حتّى تبلغَ الأمن خيرٌ ممّن يؤمنك حتى تَلْقى الخوف. وقال أبو الدّرداء رضي الله عنه: معروفُ زماننا مُنَكرُ زمانٍ قد فات، ومُنكره معروفُ زمانٍ لم يأتِ. وقال بعضُهم: ليتَ حِلْمَنا عنْك لا يدعو جهلَ غيرنا إليك. وقال عبد الملك: ما حمدتُ نفسِي على محبوبٍ ابتدأتُه بعَجْز، ولا لمتُها على مكروه ابتدأته بحَزْم. وقالوا: الغِنى في الغربة وَطَن، والفَقَر في الوَطَن غُرْبة. وقال أعرابي لرجلٍ: إنَّ فلانًا وإنْ ضحك لك، فإنَّه يضحك منك. فإنْ لم تتخذْه عدَوًّا في عَلانيتك، فلا تجعلْه صديقًا في سَريرتك. وقال عليّ رضي الله عنه: أعْظَمُ الذُّنوب ما صغُر عِنْدَك. وشَتَم رجل الشَّعبيَّ، فقال: إنْ كنتَ كاذبًا فغفرَ الله لك، وإنْ كنتَ صادقًا فغفر الله لي. وأَوْصَى بعضهم غلامًا، فقال: إنّ الظنَّ إذا أَخْلَفَ فيك أَخْلَف منك. ونحوه قول الآخر: لا تتَّكل على عُذْرٍ منِّي فقد اتَّكلْتُ على كِفاية منك. وقال الحسن: أمَا تستحيُون من طولِ ما لا تستحيُون! ونحوه قول الأعرابي: فلانٌ يستحِي من أنْ يَسْتحي. وقال: مَنْ خاف الله أخاف الله منه كلّ شيء، ومن خافَ

الناسَ أخافهُ الله من كلِّ شيء. وقيل لأبي داود وابنته تَسُوسُ دابته في ذلك، فقال: كما أكرمتها بهواني، معناه إنْ كانت تَصُونني عن سِياسَةِ دابَّتي وتتبذَّل منِّي، فها إنّي أصونُها وأتبذَّل دونها بالقيام في أمرِ معاشِها، وإصلاح حالها؛ فأخذ اللفظ بعضهم فقال في السلطان:

أُهِينُ لَهُمْ نفسي لأكرمها بهمْ

ولن تكرمَ النفسُ التي لا تهينُها

وقال بعضهم لعليل: إنْ أعَلَّك اللهُ في جِسْمِك، فقد أصحَّك من ذُنوبك. وقال بعضهم: الكريمُ واسعُ المغفرة؛ إذا ضاقتِ المعذرة.

وقال كثير بن هراسة يومًا لابنه: يا بنيّ، إنّ من الناس ناسًا يَنْقصونك إذا زِدتَهم، وتهونُ عليهم إذا أكرمتهم؛ ليس لرضاهم موضعٌ فتقصده، ولا لسَخَطهم موقع فتحذَره، فإذا عرفتَ أولئك بأعْيَانِهم فأبدلهم وَجْهَ المودَّة، وامنَعْهم موضع الخاصَّة؛ ليكون ما أبديْتَ لهم من وجه المودَّة حاجزًا دون شَرِّهم، وما منعتَهم من مَوْضِع الخاصَّة قاطعًا بحُرمتهم.

وقال خالد بن صفوان لرجل يصفُ له رجلًا: ليس له صديقٌ في السرّ، ولا عدوٌ في العلانية.

وقال آخر: إنّا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أنْ نطيع الله فيه.

وقال الحسن: كَثْرة النّظر إلى الباطل تَذْهب بمعرفة الحقّ من القلب.

وقال سهل بن هارون: مَنْ طلب الآخرة طلبتْه الدنيا حتّى توفيه رِزْقَه فيها، ومَنْ طَلَب الدنيا طَلَبه الموتُ حتّى يخرجه منها.

وكتب رجلٌ إلى محمد بن عبد الله: إنَّ من النِّعْمَة على المُثْني عليك ألَّا يخاف الإفراط، ولا يأمَن التَّقْصير، ولا يحذر أنْ تَلْحَقه نَقِيصةُ الكذب، ولا ينتهي به المدحُ إلى غايةٍ إلّا وجدَ في فَضْلِكَ عَوْنًا على تجاوزها.

الإيغال

وهو أنْ يستوفي معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه؛ ثم يأتي بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وُضوحًا وشرحًا وتوكيدًا وحُسنًا، وأصل الكلمة من قولهم: أَوْغَل في الأمر إذا أبعد الذهاب فيه.

قال التَّوَّزي: قلت للأصمعي: مَنْ أشْعرُ الناس؟ فقال: مَنْ يأتي بالمعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيرًا، أو الكبير فيجعله بلفظه خسيسًا، أو ينقضي كلامُه قبل القافية، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى. قال: قلت: نحو مَن؟ قال: قول ذِي الرُّمة حيث يقول:

قفِ العيسَ في أطْلال مَيَّةَ فاسأْلِ

رُسومًا كأخلاق الرِّداء المسلسلِ

فتمّ كلامه "بالرداء" قبل المسلسل، ثم قال "المسلسل"، فزاد شيئًا بالمسلسل. ثم قال:

أظن الذي يُجْدي عليك سؤالها

دموعا كتبذير الجُمان المفصَّلِ[115]

فتمّ كلامه، بالجمان، ثم قال: المفصل، فزاد شيئًا. قلت: ونحو مَنْ؟ قال: الأعشى حيث يقول:

كناطحٍ صَخْرةً يوما ليْفلِقَها

فلم يَضِرْها وأوهى قرنَهُ الوَعِلُ[116]

فتمّ كلامه "بيَضِرها، فلمّا احتاج إلى القافية قال: وأوهي قرنه الوعِل؛ فزاد معنى. قلت: وكيف صار الوَعِل مفضّلًا على كلّ ما ينطح؟ قال: لأنَّه ينحطّ من قلة الجبل عل قرنيه فلا يضيره.

وكتب بعض الكُتَّاب: نبوُّ الطرف من الوزير دليل على تغير الحال عنده، ولا صَبْر على الجفاء ممَّن عوّدِ الله من البرّ، وقد استدللت بإزالة الوزير إيّاي عن المحل الذي كان يحلنيه بتطوّله علّي ما سؤت

له ظنًّا بنفسي، وما أخاف عَتْبا لأنّي لم أجنِ ذنبا، فإنْ رأى الوزيرُ أنْ يقوّمني لنفسي، ويدلني على ما يراد منّي فعل. تمّ كلامه عند قوله له "يقومني" ثم جاء بالمقطع وهو قوله: "لنفسي" فزاد معنى.

وممّن زاد توكيدا امرؤ القيس حيث يقول:

كأنّ عيونَ الوَحْش حول خِبائنا

وأرحُلِنا الجزْع الذي لم يثقَّب

قوله: "لم يثقَّب" يزيد التشبيه توكيدًا؛ لأنَّ عيون الوحش غير مثقبة.

وزهير حيث يقول:

كأنّ فُتاتَ العِهْن[117] في كلِّ مَنْزلٍ

نَزَلْنَ به حَبُّ الفَنا[118] لم يُحَطِّم

الفنا إذا كسر ابيض. والفنا: شجر الثعلب. ومن الزيادة قول امرئ القيس:

إذا ما جرى شَأْوين وابتَلَّ عِطفه

تقول هزيزُ الريحِ مرّت بأثأب[119]

فالتشبيه قد تمّ عند قوله "هزيز الريح" وزاد بقوله "مرت بأثأب": لأنّه أخبر به عن شدّة حَفيف الفرس، وللريح في أغصان الأثاب حَفيف شديد. والأثأب: شجر.

وقول أبي نواس:

ذاك الوزير الذي طالت علاوته

كأنَّه ناظر في السَّيف بالطُّول

فقوله "بالطول" أنفى للشبهة.

وقول راشد الكاتب:

كأنَّه ويَد الحسناء تَغْمزه

سير الإداوة لما مسّه البلل

فقوله: "لما مسَّه البلل" تأكيد، ويدخل أكثر هذا الباب في التتميم؛ وإنّما يُسمّى إيغالًا إذا وقع في الفواصل والمقاطع.

الالتفات

الالتفات في ضربين؛ فواحد أنْ يفرغ المتكلِّم من المعنى، فإذا ظننتَ أنَّه يريد أنْ يجاوزه يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدّم ذكره به. أخبرنا محمد بن يحيى الصولي قال الأصمعي: أتعرف التفاتات جرير؟ قلت: لا، فما هي؟ قال:

أتنسى إذْ تودُّعنا سليمَى

بعود بشامةٍ سُقِي البَشام[120]

ألا تراه مقبلًا على شِعره. ثم التفت إلى البشام فدعا له. وقوله:

طربَ الحَمَامُ بذي الأرك فشاقني

لا زلتَ في عَلَلٍ وأيكٍ ناضرٍ

فالتفت إلى الحمام فدعا له.

ومنه قول الآخر:

لقد قتلتُ بني بكر بربِّهم

حتى بكيتُ وما يبكى لهم أحد

فقوله: "وما يبكى لهم أحد" التفات؛ وقول حسان:

إنّ التي ناوَلتَني فرددتُها

قُتِلَتْ قُتِلْتَ فهاتها لم تُقْتَلِ

فقوله: "قتلت" التفات.

والضرب الآخر أنْ يكون الشاعر آخذًا في معنى وكأنَّه يعترضه شكّ أو ظنّ أنّ رادًّا يردّ قوله، أو سائلًا يسأله عن سببه، فيعود راجعًا إلى ما قدَّمه، فإمّا أنْ يؤكّده، أو يذكر سببه، أو يزيل الشكّ عنه، ومثاله قول المعطّل الهذلي:

تبين صُلاةُ الحرب منّا ومنهم

إذا ما التقينا والمسالمُ بادِن[121]

فقوله: "والمسالم بادن" رجوع من المعنى الذي قدّمه، حتى بيّن أنّ علامة صُلاةِ الحرب من غيرهم أنّ المسالم بادن، والمحارب ضامر.

وقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر:

وأَجْمِل إذا ما كنت لا بُدَّ مانعا

وقد يَمنعُ الشيءَ الفتى وهو مُجْمِلُ

وقول طرفة:

وتصد عنك مَخيلةَ الرجل الشـ

ـنوف موضِحةٌ عن العظمِ[122]

بحسام سيفك أو لسانك والـ

ـكِلم الأصيل كأَرْغَب الكَلِمِ[123]

فكأنّه ظنّ معترضًا، يقول له: كيف يكون مجرى اللسان والسيف واحدًا؛ فقال: "والكلم الأصيل كأرغب الكلم"؛ وإنّما أخذه من امرئ القيس:

وجُرْح اللسان كجرحِ اليَدِ

وأخذه آخر فقال:

والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر

ومن الالتفات قول جدير بن ربعان:

مَعازيل في الهيجاء ليسوا بزادةٍ

مجازيع عند البأس والحرُّ يصبرُ

فقوله: "والحر يصبر" التفات.

وقول الرّماح بن ميادة:

فلا صرْمُه يبدو وفي اليأس راحة

ولا وُدّة يصفو لنا فنكارمُهْ

كأنه يقول: "وفي اليأس راحة"، والتفت إلى المعنى لتقديره أنَّ معارضًا يقول له: وما تصنع بصرمه؟ فيقول: لأنّه يُؤدِّي إلى اليأس، وفي اليأْس راحة.

الاعتراض

الاعتراض، وهو اعتراض كلام في كلام لم يتم، ثمّ يرجع إليه فيتمّه؛ كقول النابغة الجَعْدي:

ألا زعمتْ بنو سعد بأني

أَلَا كذبوا ـ كبيرُ السنّ فانِي

وقول كُثيّر:

لو أنّ الباخلين ـ وأنتِ منهم ـ

رأوْك تعلَّموا منك المِطالا

وقول الآخر:

فظلتْ بيوم ـ دَعْ أخاك بمثله ـ

على مَشْرع يُرْوَى ولما يُصرَّدِ[124]

وقول الآخر:

إن الثمانين ـ وبُلِّغتها ـ

قد أحوجتْ سمعي إلى ترجمان

وكتب آخر: فإنّك ـ والله يدفع عنك ـ علْق مَضِنّة، ينْفَس ويُتنافس به، فيكون خَلَفا ممّا سواه، ولا يكون في غيره منه؛ فإنْ رأيتَ أنْ تسمع العذر وتقبله؛ فلو لم تكن شواهده واضحة، وأنواره لائحة، لكان في الحقّ أنْ تهب ذنبي لجزعي، وإذلالي لإشفاقي، ولا تجمع عليّ لوعة لك، وروعة منك فعلت.
فقوله: "فإنك والله يدفع عنك" اعتراض مليح.

وقول البحتري:

ولقد علمتُ ـ وللشباب جهالةٌ ـ

أنَّ الصِّبا بعد الشباب تصابي

وقلت:

أأسحبُ أذيال الوفاء ولم يكن

ـ وحَاشَاك ـ من فعل الدنيّة وافيا

التَّلَطُّف

وهو أنْ تتلطّف للمعنى الحسن حتّى تهجّنه، والمعنى الهجين حتّى تحسّنه. فمن ذلك أنَّ يحيى بن خالد البرمكي قال لعبد الملك بن صالح: أنت حقود؛ فقال: إنْ كان الحِقْد عندك بقاء الخير والشر فإنّهما عندي لباقيان. فقال يحيى: ما رأيتُ أحدًا احتجّ للحقد حتى حسّنه غيرك.

ورأى الحسن على رجل طَيْلسان صوف، فقال له: أيعجبك طيلسانُك هذا؟ قال: نعم، قال: إنّه كان على شاة قبلك، فهجّنه من وجه قريب.

وقال أبو العيناء: لمَّا دخلتُ على المتوكِّل دعوتُ له، وكلَّمته فاستحسَن كلامي؛ وقال لي: يا محمد، بَلَغني أنّ فيك شرًّا، قلتُ: يا أمير المؤمنين، إنْ يكن الشَّرُّ ذكرَ المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فقد زَكّى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وذمّ؟ فقال في التزكية: (نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) [ص: 30، 44]، وقال في الذمّ: (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ، مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ، عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ) [القلم: 11 ـ 13]، فذمّه الله تعالى حتّى قذفه؛ وقد قال الشاعر:

إذا أنا بالمعروف لم أثنِ دائمًا

ولم أشتم الجبس اللّئيم المذمَّما[125]

ففيمَ عرفتُ الخير والشرّ باسمه

وشقَّ لي اللهُ المسامعَ والفَمَا

وكان عبد الله بن أمية وَسَم دوابّه "عدّة"، فلمّا جازَ بها الحجاج جعل إلى جانبه "للفرار". وقيل لعبادة: إنّ السُّودان أسخن، فقال: نعم، للعيون. وقال رجل لرجل كان يراه فيبغضه: ما اسمك؟ فقال: سعد، قال: على الأعداء. وسمعت والدي رحمه الله يقول: لعن الله الصبر فإنّ مضرته عاجلة، ومنفعته آجلة، يتعجّل به ألم القلب، بأمثال المنفعة في العاقبة؛ ولعلَّها تفوتك لعارض يَعْرِض، فكنت قد تعجّلت الغمّ من غير أنْ يَصِل إليك نفع؛ وما سمعت هذا المعنى من غيره، فنظمته بعد ذلك، فقلت:

الصَّبرْ عمّن تحبّه صَبرُ

ونَفْع مَنْ لاَمَ في الهوى ضَرَرُ

مَنْ كان دونَ المرام مصطبرًا

فلستُ دونَ المَرام أصْطبِرُ

منفعة الصَّبْر غيرُ عاجلةٍ

وربَّما حَالَ دونها الغِيرُ

فقمْ بنا نلتمس مآرِبنا

أقام أوْ لم يقم بنا القَدَر

إنّ لنا أنفسًا تسودنا

أعانهنّ الزمان أو بذرُ

وابغِ من العيش ما تسرّ به

إن عَذَل الناس فيه أو عذروا

ومن المنظوم قول الحطيئة في قوم كانوا يُلقَّبون بأنف الناقة فيأنفون، فقال فيهم:

قَوْمٌ هم الأنف والأذنابُ غيرُهم

ومَنْ يُسَوِّي بأنفِ الناقة الذنبا

فكانوا بعد ذلك يتبجحون بهذا البيت.

ومدح ابن الرومي البُخْل وعَذَر البخيل، فقال:

لا تَلُمِ المرءَ على بُخْلِه

ولُمْهُ يا صاحِ على بَذْلِهِ

لا عجب بالبخل من ذي حِجًى

يُكْرم ما يكرم من أجْلِه

المُشْتَّق

المشتقّ على وجهين، فوجه منهما أنْ يُشتق اللفظ من اللفظ، والآخر أنْ يُشتق المعنى من اللفظ، فاشتقاقُ اللفظ من اللفظ، هو مثل قول الشاعر في رجل يقال له ينخاب:

وكيف ينجح مَنْ نصف اسمه خابا

وقلت، في البانياس:

في البانِياس إذا أوطئت ساحتها

خوف وَحَيْفٌ وإقلال وإفلاس[126]

وكيف يطمع في أمن وفي دعة

مَن حلَّ في بلد نصف اسمه ياس

واشتقاق المعنى من اللفظ، مثل قول أبي العتاهية:

حُلِقتُ لِحية مُوسى باسمه

وبهارون إذا ما قُلِبا

وقال ابن دريد:

لو أوحي النحو إلى نفطويه

ما كانَ هذا النحو يعزا عليه

أحرقه الله بنصف اسمه

وصيَّر الباقي صُراخًا عَلَيه



1. شديد الشَكيمة: أبيٌّ لا ينقاد. ↑
2. الصليب: الخالص النسب. ↑
3. الصريح: الخالص النسب. ↑
4. الزنجي: بفتح الزاي وكسرها: واحد الزنوج وهم جيل من السودان. ↑
5. النبطي؛ واحد النبطي بفتحتين وهم جيل من العجم كانوا ينزلون بالبطائح بين العراقين. ↑
6. عمى: أخفى. والسائر: الباقي. ↑
7. الغرة: النفيس من كلّ شيء، والعرّة: القذر. ↑
8. المونق: المُعجِب. ↑
9. التشادق: تشادق: لوى شِدقه للتفصُّح. ↑
10. الهَلَل:الخوف والإحجام. ↑
11. الطعم للصيد. اللوط: اللازق. ↑
12. الضمان: العاهة. والشمس: معلاق القلادة في العنق والجمع شموس، وجيد شامس: ذو شموس على النسب. ↑
13. المهبوت: السائر على غير هداية. ↑
14. الوَشَل: القليل من الدمع. والمعين: الجاري. ↑
15. غيض دمعه: نقصه. ↑
16. وَخِم: ثقيل. ↑
17. الخَطِّيّ: الرماح نسبت إلى الخطّ، وهو مرفأ السفن بالبحرين. والصُّوار: القطيع من بقر الوحش. ↑
18. الضغاء من السنور: صياحه. ↑
19. الرطانة، بفتح الراء وكسرها: الكلام بالأعجمية. ↑

20. الجمجمة: ألا يبين الإنسان كلامه. ↑

21. الختن: الصهر ↑

22. الإعذار: الختان. ↑

23. بقيته: وكفى على رزئي بذاك شهيدا. ↑

24. تمجّ: تستكره وترفض. ↑

25. المعاذ: الذي يلجأ إليه. ↑

26. أسغب: دخل في المجاعة ↑

27. مار: جلب الطعام. ↑

28. الندب: المسارع إلى تلبية الحاجة. ↑

29. اتنوّق فيه: بالغ في تجويده. ↑

30. أعجاز الأمور: أواخرها. ↑

31. الصعوبة والتعسّر. ↑

32. بِسِلْكِها: تآلف الكلام مع بعضه بعضًا. ↑

33. عِرْق: مهل. ↑

34. كَزًّا: قبيحًا. ↑

35. رجل ألحى: طويل اللحية وعظيمها. ↑

36. دلائها: جمع دلو وهو العاء الذي يُستخرج الماء به. ↑

37. الثني من الحبل: ما أعوَّج منه. ↑

38. الأُشُر: الأسنان المحزوزة رقيقة الأطراف. ↑

39. أشنب: الأبيض. ↑

40. أطراره: أطرافه. ↑

41. العريسة: مأوى الأسد والضبع. ↑

42. مُفيتًا: مُتسامحًا.. ↑

43. الخرق: الأرض البعيدة. والوجناء: الناقة الشديدة. والحرف من الإبل: النجية الماضية. ↑

44. التلاع: جمع تلعة، وهي ما ارتفع من الأرض وما انهبط أيضًا. ↑

45. الكهام: من كهم الرجل كهامة إذا ضعف وجبن عن الإقدام، أي ليس فينا رجل ضعيف. ↑

46. الفلاة: الصحراء، ومهريق الماء: نبع الماء. ↑

47. السمائم: الرياح الحارة. ↑

48. السرابيل: جمع سربال وهو القمص أو الدِّرْع. ↑

49. المُزن: السحاب الممطر. ↑

50. الخَضِيل: كلّ شيء ندٍ. ↑

51. الرمض محركة: شدة وقع الشمس على الرمل وغيره. ↑

52. فتاة الحي: زرقاء اليمامة. وشراع: مجتمعة. والثمد: هو الماء القليل. ↑

53. النيق: أرفع موضع في الجبل. ↑

54. القيصوم والجثاث: نباتان صحراويّان مُرَّان. ↑

55. الملط: الخبيث أو المختلط النسب. ↑

56. الهُجنة: اختلاط الكلام الفصيح بغير الفصيح. ↑

57. الأقيال: جمع قَيْل: الملك. أو من ملوك حمير. والعباهلة: ملوك مثبَّتون على عُروشهم. ↑

58. التيعة: الأربعون من الغنم أو أدنى ما تجب فيه الصدقة من الحيوان. والثيمة: الشاه الزائدة على الأربعين حتى تبلغ الفريضة الأخرى. ↑

59. السيوب: المال المدفون في باطن الأرض. ↑

60. اخلاط: اختلاط الإبل. والشناق: ما بين الفريضتين في الزكاة. والوراط في الصدقة: الجمع بين متفرق. والشغار: أن يزوج الرجل امرأة على أن يزوجه أخرى بغير مهر وصداق كل منهما بضع الأخرى. ↑

61. أجبَى: الإجباء أنْ يغيب الرجل إبله عن المصدق، من أجبأته إذا واريته. ↑

62. أبرمه: أمله. ↑

63. الخصاصة: الفقر. ↑

64. العائدة: المعروف والصلة والعطف والمنفعة. ↑

65. المَوجِدة: العَتَب. ↑

66. الغمرة: الشدة. السبوح: الفرس الشديد الجري. ↑

67. الغمرة: الشدة. السبوح: الفرس الشديد الجري. ↑

68. أجول: أكثر انتشارًا. ↑

69. الوَتِغ: الهلاك، والإثم، وفساد الدين. ↑

70. الدمن: جمع دمنة والأصل فيها ما تدمنه الإبل والغنم من أبعارها وأبوالها، أي تلبده في مرابضها، فربما نبت فيها الكلأ ويرى له غضارة وهو وبيء المرعى منتن الأصل، شبه به المرأة الحسناء في المنبت السوء؛ لأن تمام الحديث: قيل: وما ذاك؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء. ↑

71. ارتضخ: اعطِ قليلًا من كثير. ↑

72. مقصورات: أي محبوسات على أزواجهن. ↑

73. (ودوا لو تدهن فيدهنون)، بمعنى لو تكفر فيكفرون، وقيل: ودوا لو تصانعهم في الدين فيصانعونك. ↑

74. المشارة: المفاعلة من الشرّ أي لا تفعل به شرًا فتحوجه إلى أنْ يفعل بك مثله. والغرة: الحسن والعمل الصالح. والعرة: القذر واستعير للمساوئ والمثالب.. ↑

75. يضير: يضر. ↑

76. المتضائل: المنقبض. ↑

77. لم تسقه: أي لم تحمله. ↑

78. أصغره: جعله صغيرًا. ↑

79. أصل العير: القافلة، والنفير: القوم الذين يتقدمون في القتال، ويقولون لمَن لا يستصلحونه: فلان لا في العير ولا في النفير. ↑

80. يشير بذلك إلى عير قريش التي كانت مع أبي سفيان، وعتبة كان قائد المشركين يوم بدر. ↑

81. جد عبد الملك. ↑

82. وقد أبى أبو بكر وعمر أنْ يردّاه. ↑

83. زجا الأمر: تيسّر. ↑

84. نهس اللحم: أخذه بمقدم الأسنان، وانتهسه كذلك. ↑

85. سماط القوم: صفهم. ↑

86. الحمالة: الديَّة يحملها قوم عن قوم. ↑

87. قِرَى النازل: إكرام الضيف من طعام وغيره. ↑

88. يُعاص: يُعاند ولا يُطاع. ↑

89. خفض: سعة وراحة. ↑

90. الفاقة: الفَقر والحاجة. ↑

91. الصفرد: طائر جبان. ↑

92. جنس من الغنم قبيح الشكل. ↑

93. الفقع، بفتح الفاء وتكسر: البيضاء الرخوة من الكمأة. ويقال للذليل: هو أذل من فقع بقرقرة، لأنّه لا يمتنع على مَن اجتناه أو لأنّه يوطأ بالأرجل. ↑

94. باقل: اسم رجل يضرب به المثل في العِيّ. ↑

95. السِّبَاخ: الأرض التي لم تزرع لملوحتها. ↑

96. الوَطَر: الحاجة التي فيها المطلب. ↑

97. العَسّ: الحارس الذي يطوف ليلًا. ↑

98. عَثَر: سقط. ↑

99. العرجون: العذق عامة، وقيل: لا يكون عرجونًا إلا إذا يبس واعوجّ. ↑

100. الحشف: أردأ التمر أو الضعيف لا نوى له أو اليابس الفاسد. ↑

101. كميش الإزار: قصيره. وطلّاع أنجد: ضابط للأمور غالب لها. ↑

102. لمضوفة: نزل به وشقّ عليه. ↑

103. الفتيل: ما كان في شق النواة. ↑

104. القطمير: القشرة الرقيقة على النواة. والنقير: ثقب في النواة. ↑

105. الوكنات: المواضع التي تاوي إليها الطير في رؤوس الجبال. والمنجرد: الفرس القصير الشّعر، وذلك من صفة الخيل العتاق. والأوابد: واحده آبدة الوحش. والهيكل: الفرس الفخم المشرف. ↑

106. تلوَّح: بان ووضح. ↑

107. الصَّهْر: هنا بمعنى الإذابة، من قولهم: صَهَر الشحم ونحوه يصهره صهرًا: أذابه. ↑

108. العنق بالضم: الجماعة الكثيرة من الناس، مذكر، والجمع أعناق. ↑

109. يضاحك الشمس: يدور معها. والشرق: الريان. والعميم: التام. والمكتهل: الذي انتهى في التمام. ↑

110. الكاهل: مقدم أعلى الظهر ممَّا يلي العنق. ↑

111. الدَّارعون: لابسو الدروع. ↑

112. الهَرَاس: شوك حادّ وجارح. ↑

113. طبق الأرض: أيْ تعمّ الأرض حتّى تصير لها كالطبق. تحرَّى: تقصَّد. وتدر: تصبّ الماء. ↑

114. المشارة: تفاعل من الشرّ. والغرة: الحسن. والعرة في الأصل: القذر، واستعير للمثالب. ↑

115. الجُمان: اللؤلؤ. ↑

116. الوعل: الغزال. ↑

117. العهن: الصوف. ↑

118. هو شجر ثمره حب أحمر. ↑

119. الشأو: الطلق. وعطفه: ناحيته، وهزيز الريح: صوتها. ↑

120. البشام: شجر ذو ساق وأفنان وورق لا ثمر له. ↑

121. تبين: تستبين. صلاة الحرب: الذين يصلونها. ↑

122. الشنوف: الذي يرفع رأسه، موضحة: شجة تبدي عن العَظْم. ↑

123. كأرغب الكلم: كأشدّ الجراح وأكثرها اتّساعا.. ↑

124. التصريد: التقليل. ↑

125. الجِبْس: الجامد ثقيل الروح.. ↑

126. الحَيف: الظلم الشديد ↑

Table of Contents

[Start]